رواية

2020
1.1.2020

غونزالو تافاريس

ترجمة: محمّد آيت حنّا

ماتيو
خسر وظيفته

Gonçalo M. Tava

Matteo perdeu o emprego

Matteo lost his job



ماتيو خسر وظيفته

غونزالو م. تافاريس

رواية

ترجمها إلى العربية

محمّد آيت حنّا



2019

ماتيو خسر وظيفته

غونزالو م. تافاريس

ماتيو خسر وظيفته/ رواية
غونزالو م. تافاريس

ترجمة: محمّد آيت حنّا

لوحة الغلاف والإخراج الفني: ستوديو سيماء

الطبعة الأولى- سبتمبر 2019
978 - 9921 - 712 - 13 - 1 : ISBN
رقم الإيداع بالمكتبة الوطنية- دولة الكويت:
2019/1091

Author: Gonçalo M. Tavares,
Matteo perdeu o emprego

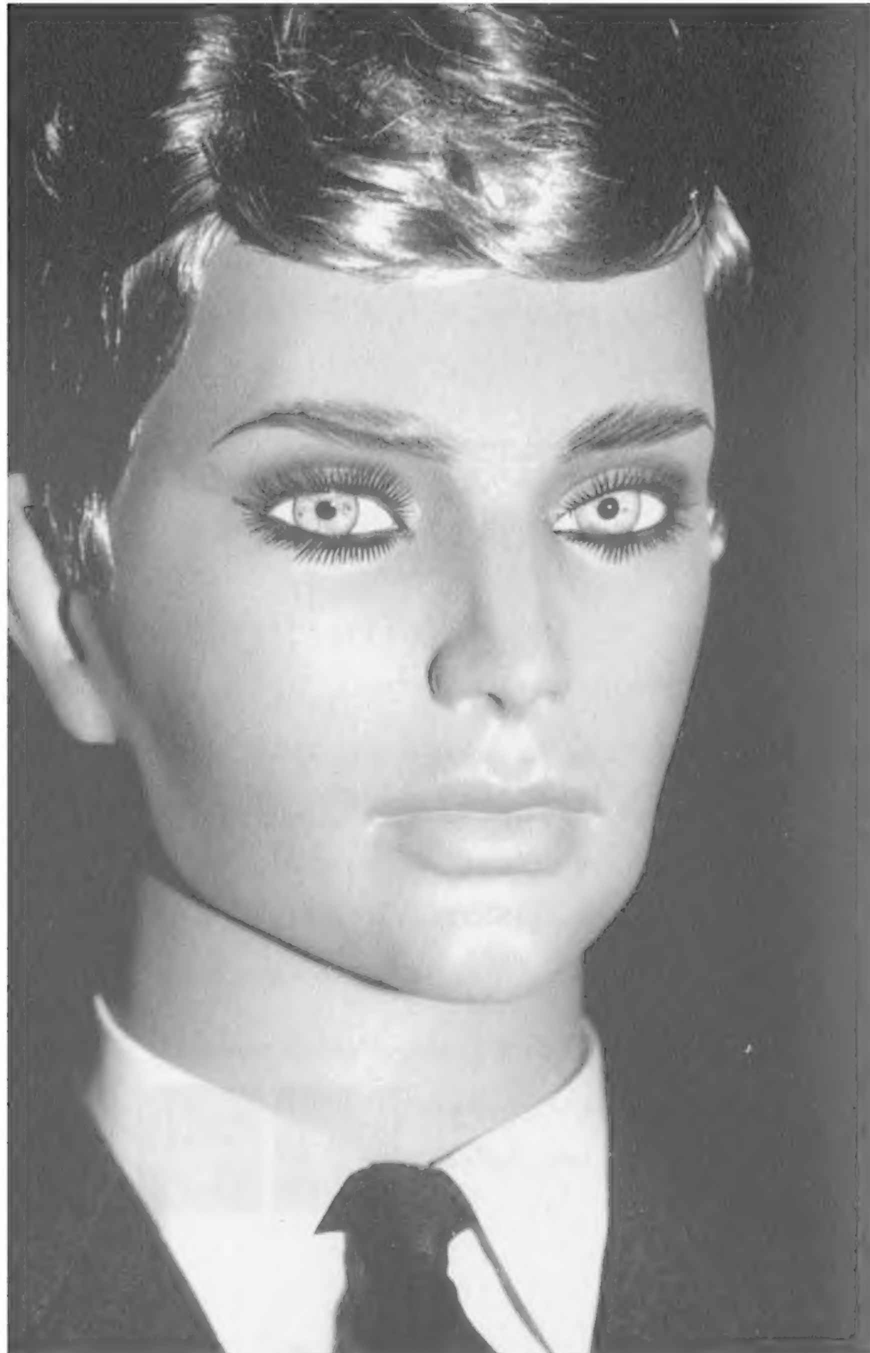
Published October ©2010 by
Porto Editora.
isbn: 9789720042903
Translated from French by:
Mohamed Ait Hana



هاتف: 51088000 965+ / 99462219 965+
البريد الإلكتروني: info@daralkhan.com
تويتر:@DarAlKhan_kw
انستغرام:daralkhan_kw

الفهرس

حكاية: آرونسون، آشلي، باومان، بوامان، كامِر، كوهِن، دياموند، آينهورن، غلاسر، غولدبرغ، غولدشتاين، غوتليب، غرينبرغ، غرينفيلد، هِلسل، هولزبرغ، هورنيك، هوروفيتز، إندِكتور، كاشين، كِسلر، كلاين، كُوِن، ليفي، ماتيو، نِدِرمَيّر






آرونسون والمدارُ الطرقيُّ الأوّل

لم يكن آرونسون دوماً ميّتاً.

لا بل مرَّ على آرونسون حينٌ من الزّمان كان فيه، من دون مبالغةٍ، كائناً حيّاً.

منذ السّابعة والعشرين من عمره وحتّى الثلاثين، كان آرونسون يدور -مثل حشرةٍ مُوَسْوَسة- حول مدارٍ طُرقيّ.

كلّ صباحٍ، ما بين السّابعة والسّابعة والنّصف، كان بالإمكان رؤيةُ رجُلٍ يدور حول المدار الطُرقيّ الرّئيس بالمدينة، المدار الذي تمرّ عبرَه ستّون بالمئة من حركة السّير.

بالطّبع كانت السّاعة السّابعة صباحاً تشهد انبعاث كميّةٍ من الغازات العادمة أقلّ ممّا تشهدُه فترة ما بعد الزّوال، لكنّها كانت تنبعث في جميع الأحوال؛ زِد على ذلك سوء أسفلت الطّريق، وسرعةَ بعض السيّارات. وهناك، وسط كلّ ذلك، رجلٌ يدور، مجازفاً بحياته، حول مدارٍ طُرقيّ، مئات المرّات. آرونسون.

أيّ عادةٍ، كيفما كانت، وأيّ ممارسة روتينيّة مهما بلغت درجة روتينيّتها، لا بدّ وأن تُؤْلَف مع الوقت: الاستثنائي ينقلبُ في أسابيع معدودة؛ وفي بعض الملابسات، لا يلزم سوى بضعة أيّامٍ

كي يصير الوحشيُّ والشّائهُ حالةً سويّة، حالة معتادة. وفي أقصى الحالات: حدثاً لا يثير اهتمامنا، مجرّد منظر.

بين السّابعة والسّابعة والنّصف، كان سائقو السيّارات، ممّن اعتادوا المرور من ذاك المدار الطّرقي، يعلمون أنّ رجلاً، يرتدي كما ينبغي سروالا قصيراً وقميصَ عدّاءٍ، قد اعتاد هو أيضاً الحضور هناك. يدور مئات ومئات المرّات، مثل سيّارة لا تعرف طريقَها، وتتردّد بين هذه الوجهة وتلك؛ فتكتفي بالدّوران، مرّة تلو أخرى، من دون أن تجازف باختيارٍ. طالما أدور حول مدارٍ طرقيّ، فلستُ تائهاً، وعلى الأقلّ أنا لا أعودُ إلى الوراء. هو ذا واحدٌ من عوامل الجذب في حركة السّير هذه، حركة سيرٍ تكاد تكون لا نهائيّة، لو لا أنّها تتوقّف تحديداً بعد إكمال ثلاثمئة دورة: حول مدارٍ طرقيّ، لا أحد يتراجع إلى الوراء، لا أحد يخطئ، لا أحد يضطرّ إلى تحمّل مسؤولية خطئه والرجوع على أعقابه. الحياة سهلة، رغم كلّ شيء. حول مدارٍ طرقيّ.

لا أحد يحبّ شعور المهانة، وإنّ آرونسون على الأقلّ (لو أنّه كان سيّارةً) لن يكون قد سلك الطّريق الخاطئ. ثلاثمئة دورة يستعيد بها حيويّته، ثم العودةُ إلى المنزل. «لا تجازف!» كذا يبدو أنّ أحدهم يهمس في أذنه.

لِنَصِفْ بإيجازٍ المدارَ الطرقيّ: دائرة مثالية. قُطرها: يستحيل

تحديدُه بدقّة، لكنّه عدد دائريّ[1] -من دون أي قيمة بعد الفاصلة.

ما بين السّابعة والعشرين والثلاثين من عمره، حين كان يركض ما بين السّابعة والسّابعة والنّصف حول المدار الطرقيّ الرّئيس بالمدينة، لم يكن آرونسون يُعدُّ سوى مجنونٍ متوقَّع -ممّا يعني أنّه كان نصف مجنون، ما دامت القابليةُ للتوقّع تخفِّضُ حدّةَ الخطر إلى النّصف.

على أنّه، أيّاماً بعد عيد ميلاده الثلاثين، أوقف ركضه حول المدار الطرقيّ.

ما عادَ يُرى هناك. وما عاد آرونسون يُرى، تحديداً، لأنّه كان قد مات. وإنّ المدينة لتشعر بالعار من جسدٍ ميّتٍ لدرجة أنّ الجسدَ يختفي بعد ساعةٍ كحدّ أقصى. من أراد أن يرى جسداً ميتاً، عليه أن يقصد عينَ المكان، أثناء تلك البرهة الزمنية الوجيزة التي يكون فيها الميتُ ميّتاً بقلب المدينة.

(لا يُحمى الموتى بقدر ما لا يحمى الأحياء، بيد أنّ للمدينة قواعدها، نظامَ سيرها. صحّتها العامّة، قد نقول، من دون أن نكون مخطئين).

هكذا إذن انتهى وجود آرونسون. بالكاد كان قد بلغ الثلاثين

---

(1) عدد صحيح طبيعي قابل للقسمة على عشرة. (الحواشي من وضع المترجم ما لم تتمّ الإشارة إلى خلاف ذلك.)

من عمره. وكان يبدو رجلاً عادياً، إن استثنينا ذاك الأمر، ذاك الرّكض، لكنّ شيئاً ظلّ ناقصاً في نظره. ذات مرّة، شهوراً قبل وفاته، أوقف أحد السّائقين سيّارته وسأله: «لِمَ تركض في مكانٍ كهذا؟ إنّه أمرٌ خطير».

شكره آرونسون على عنايته. من دون أن يجيب أيّ إجابة محدّدة، اللّهم إلا ربّما هذا القول العادي «لأنّي أحبّ هذا». هزّ كتفيه وواصل ركضه.

لكنّ شيئاً ما قد تغيّر يومئذ. كان آرونسون قد عزم أمره.

إليكم تفصيلَ موته: في السّابعة صباحاً بدأ ركضه المعتاد حول المدار الطرقيّ، غير أنّه، ذاك اليوم، على نحوٍ غريب، شرع يركض في المنحى المعاكس لسير السيّارات. من الطّابق الثّالث، كان نِدِرماير يتابع كلّ ما يجري من نافذة الشقّةِ التي كان قد أفرغها، في اللّيلة السّابقة، من جميع أثاثها وأغراضها. مُوليةً ظهرها إلى النّافذة، وجاثية على ركبتَيها، كانت ثمّة مومسٌ قد أنزلت منذ مدّة طويلة سروالَ السيّد نِدِرماير. وكان هو، حتّى في هذا الظّرف، لا يُفلتُ شيئاً ممّا يجري في الشّارع. وبعد ساعةٍ من الآن سيكون في سوق البراغيث[2] كي يبيع صورَ زواجه القديمة، التي سيحملُها في ظرف.

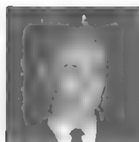
---

(2) سوق تقام في الهواء الطلق، تباع فيها المتلاشيات والأثاث المستعمل (من هنا نعتها بسوق البراغيث حيث قد تحمل تلك الأشياء حشرات وبراغيث)، ولا تُباع فيها المواد الغذائية.

لَمَ قرّرَ آرونسون ذاك اليوم أن يقلب منحى ركضه؟ الشّخص الوحيد الذي بإمكانه أن يجيبنا لم يعد قادراً على الكلام.

أتمّ آرونسون خمس دوراتٍ حول المدار الطرقيّ، لكن عند الدّورة السّادسة صدمت السيّارة التي يقودها السيّد آشلي جسدَه بسرعة كبيرة وطوّحت به، فاقداً الحياة، وسط المدار الطرقيّ. ولو أنّ شكل الجسد الإنساني لم يكن بهذا القدر من اللا انتظام، لكان آرونسون قد سقط (أو سقط رأسُه) بالضّبط في مركز المدار الطرقيّ.







آشلي والطَّردُ

مثل فنّانٍ لم يرضَ البتّةَ عن اللّوحة اللي رسمها، فظلّ كلّ يوم، وفي كلّ لحظةٍ، يضيفُ إليها، أو يمحو عنها، ضربة ريشةٍ هناً، وأخرى هناك، وسواسٌ بليدٌ، لا نهاية له، كان آشلي يؤنّقُ سيّارَتَه.

لم يكن يمسك بالمقود البتّة قبل أن يكون قد أضاف لمسةٍ إلى شيءٍ ما: فكان ينزع منشوراً إعلانياً حُشر بين مسّاحة الزجاج وزجاج السيّارة الأمامي، أو بأصبع مبلولة يمسح لطخةً صغيرة، أو بسبّابته وإبهامه يجسّ ضغط العجلات الأماميّة، أو يتحسّس ندبةً معدنيّة خلّفتها حادثةٌ قديمة على الباب، ... إلخ. يوم الأحد، نهايةَ الصّباح، كان آشلي يفتح سيارته، وبخرقة بيضاءَ كان يمسح ما ينبغي مسحه، حتّى ينقلب بياضُ الخرقةِ سواداً. في ما وراء البُعد المّاديّ للعملية، كان الأمرُ يتعلّقُ بترقٍ روحيّ: التخلّص من كلّ الأوساخ العالقة بهذه المركبة التي كانت تحملُه إلى أماكن مختلفة من العالم.

(مساعِدُ العينين، ذلكم تعريفُ السّيارة -آلةٌ تقرّبُنا في ساعةٍ من أشياءَ تبعُد عنّا بمئة كيلومتر، وإذ نصلُ، نتمكّنُ من الرؤية. نتمكّن من أن نرى ما لم يكن بالإمكان حتّى تلك اللّحظة إلا حكيُه).

على أنّ هذا ما حدث لآشلي ذات مرّة: كان نائماً. وفي اللّحظة الموالية، كان يُسلّمُ طرداً.

علبة نصفُ منبعجة، لا تشفُّ عن شيء: ما الذي يمكن أن تحويه؟ حسناً، كانت لديه مهمّة يقوم بها: توصيل الشيءِ عديم الملامح الذي غلّفَهُ أحدهم.

عنوان التسليم كان واضحاً، الشّارع محدّدٌ بدقّة، وكذا الرّقم: 217.

ما وزن الرّزمة؟ ليس من السّهل كذلك تكوين فكرةٍ: لا هي بالثقيلة، ولا هي بالخفيفة جداً؛ كان بالإمكان القول، لو أنّ أمراً كهذا كان ممكناً، إنّها كانت تبدو حيناً ثقيلةً جداً، فتفرض على آشلي مجهوداً عضلياً كثيفاً؛ وطوراً، على النّقيض من ذلك، تبدو كأنّما يُعلّقُ وزنَها، فيحملها من يحملها بكلّ أريحيّةٍ، كأسهل ما يكون الحمل. كان بالإمكان تقريباً القيام بهذه الحسبة: كلّ عشر خطوات كان الوزنُ يتغيّرُ؛ ما يحمله آشلي كان ثقيلاً -كان بحاجة إلى يدَيه معاً وإلى ضغط معصمَيه كلّه- ثمّ بعدها بمدّة وجيزة: لا شيء، لدرجة أنّه، أحياناً، كان ينسى أنّه يملك يدَين (لفرط خفّة حملِه).

بالتّأكيد، كان من الممكن أن نفسّر بوضوحٍ هذا التغيير عبر

إرجاعه إلى التحوّل المستمرّ الذي يعتري انتباهَ آشلي. رأسُه -ليس رأسَه بما هو عضلات وعظام فحسب، وإنّما أيضاً أكثر ما في الرأسِ من طابع روحي- ينتقل بشكلٍ متعاقبٍ بين الرزمة والعالم. وحين يكون في الوضع الذهنيّ الثاني يتبدّد وزنُ الرزمة؛ كأنّما يحمل بين يديه ثُقباً.

حسناً، عبرَ آشلي ملتقى الطُرق وألفى نفسه في الشّارع المطلوب بما لا يدع مجالاً للشكّ. توقّف ليقرأ الاسم، وفي باله ما كان قد سأله إيّاه ذاتَ يومٍ ابنُه ذو الأعوام الأربعة: من الكاتب الذي كتبَ أسماء الشّوارع على الألواح؟ يتذكّرُ أنّه فكّر يومئذٍ في أنّ كتابة اسم على لوحة ليس بالمهمّة اليسيرة: يلزم، على الأقلّ، كاتبٌ ثابتُ اليد.

الرزمةُ غير المنتظمة، غير ثابتة الوزن، ينبغي أن تسلّم في الرّقم 217. لا أيسر من ذلك. بمصادفةٍ سعيدةٍ، ولكي نكون صرحاء مصادفةٍ غيرِ مستحقّة، كما فكّر في ذلك آشلي نفسه، ها هوَ ذا موجود تحديداً أمام الرّقم 217. موقع التسليم في الطّابق الثاني. صعد، رنّ. فتحت الباب سيّدةٌ.

سألها آشلي ببلادة: السيّد باومان؟

أجابته السيّدة بلطفٍ أنّها ليست السيّدَ باومان، وأنّ لا أحد

باسم باومان يسكن هناك.

ألحّ آشلي، فقد كان موجوداً في العنوان الصّحيح، لا شكّ في ذلك، قد يكون ثمّة خطأ... ألا تنتظرون طرداً؟

سألته السيّدة: ماذا فيه؟

أجابها آشلي بأنّه لا يعرف.

لكن، في جميع الأحوال تلك السيّدة لم تكن السيّدَ باومان، وعليه، بعدما حيّاها آشلي بأدبٍ، نزل السلالم؛ ولمّا صار في الشّارع، نظرَ مرّة أخرى إلى رقمِ العمارة. لا شكّ: الرّقم 217.

كانت ثمّة مشكلة مع الطّرد. حائراً شيئاً ما، لا يعلم ما عليه أن يفعلَ، عادَ آشلي يصعدُ الشّارع. وبينما يتمشّى، بدأ يَخْبِرُ إحساساً غريباً، كأنّما هو مراقَبٌ، كأنّما عينا أحدهم مُسمّرةٌ برقبته؛ مع ذلك لم يكن ثمّة وجهٌ بأيّ نافذة، ما كان يُرى أحد.

واصل التقدّم، لكن لم يفارقه ذاك الإحساسُ: من كان يراقبُه؟ بغتةً رفع رأسَه و... غريزياً، توقّف، ذاهلاً، إزاء رقم العمارة التي كان يقف أمامها الآن. كان الرّقم 217. تحجّر. ثمّ ما لبث أن عاد أدراجه أمتاراً بخطواتٍ واسعة، هرولةً. هذه العمارة، وتلك التي بجانبها، والتي بعدهما: كلّها كانت تحمل الرّقم 217. اتّخذ المنحى المعاكس، وعبَر الشّارع ثمّ شرع يركض. عند هذه

المرحلة كان يحمل رعباً بالغاً أو خوفاً هائلاً أو فضولاً عظيماً، إزاءَ العالمِ، لدرجة أنّ الرزمة كانت تبدو أنّها تحمل شيئاً فارغاً، أو بالأحرى: كانت نفسه هي التي تبدو فارغةً، رزمةً محشوّةً بلا شيء، لا بل: كانت لا شيء محشواً في لا شيء. وهذا ما كان يراه: عماراتٍ وعمارات، في صفّ واحدٍ، عمارات قديمة، وأخرى أحدث عهداً، وثالثةٌ قد افتتحت منذ فترة وجيزة. لكن كلّها تجمعُها خاصية مشتركة: الرّقم 217.

فحص بدقّة الشّارع من أقصاه إلى أقصاه، من هذا الجانب ثمّ من ذاك: كلّ العمارات كانت تحمل الرّقم 217. كان الشّارع هائلاً. مئات العمارات.

نظرَ مرّةً أخرى إلى الطّرد الذي يحمله بين يديه، وكأنّما يأمل في الشيءِ عوناً. كان العنوان محدّداً بوضوح. هو ذاك الشّارعُ، بما لا يدع مجالاً للشكّ. وكانت العمارةُ رقم 217، والطّابق الثاني. لكنّ كلّ العمارات كانت مؤلّفةً من طابقَين على الأقلّ. مفتاح اللّغزِ إذن في الاسم. الطّرد مُرسلٌ إلى السيّد باومان؛ لا بدّ أن يكون ثمّة باومانٌ في هذا الشّارع.

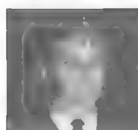
مرّةً أخرى، استدار على عقبَيه وعاد يبدأ من البداية.

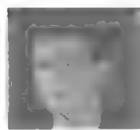
عاجلاً أو آجلاً سيعثر على السيّد باومان، فيسلّمه الطّردَ،

ويجبره على الإجابة عن هذا السّؤال: أيّ شيءٍ في الرّزمة؟

كلّ هذا، سَجّلوا معي، قد حدث بيومٍ واحدٍ بعد اليوم الذي صدم فيه السيّدُ آشلي السيّدَ آرونسون، عدّاءَ المدار الطرقيّ.





باومان والقمامة

بوسعنا أن نتحدّث عن سلوكاتٍ هوَسية دقيقة، حتّى وإن لم تتناسب مع أيّ مرّضٍ يتحكّمُ فيه الأطبّاءُ بما يكفي لتدجينه بالعذوبة الخدّاعةِ لاسمٍ من الأسماء.

كان السيّد باومان يقتربُ من حاوية قمامة. قدماهُ لم تكونا تفصحان عن شيء، لكنّه كان ينزُّ أصلاً، حتّى قبل أن يلمس القمامة، رائحةً مثيرةً للغثيان، رائحةً تنفّرُ أصدقاءه، لا بل وحتّى أعداءه.

كان باومان ينقّي القمامة. يأخذ البقايا، واحدةً واحدة، كلّ فُضلةٍ تمتلئ بها شيئاً فشيئاً حاويةٌ، ثمّ يغسلها بعناية فائقة، كأنّما يتعلّق الأمرُ بترميم أنتيكاتٍ، ما إن تصلّحَ وتُصقل حتّى تعيّرَ قيمتُها بالذّهب. بيد أنّ الأنتيكات هنا كانت أشياء مدمَّرةً: علبُ مشروباتٍ معدنيةٌ مسحوقة، قشور فاكهة، فناجين مهشّمة، شظايا زجاجٍ لم يعد من الممكن التعرّف على أصلها -أيُّ شفاه حلوة مسّتَ فيما مضى هذا الشّقَف، أيامَ لم يكنِ قد صارَ بعدُ شقفاً؟- أواني مطبخٍ، وأحياناً أشياء استعملها عشّاقٌ في لحظة الاستثارة، ... إلخ.

كان بعضهم يدّعي أنّ باومان مؤرّخٌ. وأنّه، في العمق، ينبغي أن نرى في هذا السّلوك الهوسيّ -بعدما صار صاحبُنا في السّتين من عمره -الأثرَ المختلَّ لنشاطه في استعادة الماضي، أي، النّشاط القائم على إيلاء العناية لما قد تخلّى عنه الآخرون وخلّفوه وراء ظهورهم. على أنّه لم يتمّ التحقّق قطّ من هذه المعلومة- المعلومة المتعلّقة بمهنة باومان سابقاً.

المؤكّد هو أنّ، نهايةَ النّهار، كان باومان مع معدّاته، يقصد، مباشرة، دونما أيّ التفاف، حاويةَ النّفايات الواقعة أمام الرّقم 217 بالشّارع G.

معدّاتُه: أدوات المجنون ـ دلو أسود ممتلئ بالماء، يحمله بيده اليسرى بصلابةٍ مذهلة؛ فيما يمناهُ تحملُ ليفة استحمام، فرشاة أسنانٍ مستعملة، ثمّ حزمة أسلاكٍ صغيرة ومكشطة. خلاصة القول: كانت يده اليمنى تحملُ الأشياء الخاصة بالبُقع الدّقيقة -فرشاة الأسنان على سبيل المثال- والبقع الأوسع، تلك التي تتطلّبُ حركاتٍ أكثر امتداداً -ليفة الاستحمام- والبقع التي تتطلّب مجهوداً بدنياً أكبرَ -المكشطة- ... إلخ. وبهذه المعَدّات كان ينظّفُ القمامة.

واضعاً الدّلو أرضاً، كان يشرع في التّنظيف، بادئاً بليفة الاستحمام، ثمّ ينتقل إلى فرشاة الأسنان ناشداً بها بلوغَ طيّاتِ

عبوةِ المشروبِ الغازيّ.

كان باومان يحمل معه كذلك منشفةً بيضاء، هي بمثابةِ ساعةٍ تشير إلى انقضاء الوقت، إذ تصير المنشفةُ سوداء تماماً، فإنّها تعملُ عملَ إشارةٍ صوتية، غير موجودة والحالُ هذه؛ وحين تصير متّسخةً تماماً، بعدما كانت في بداية الأمر بيضاء من غير دنسٍ، فإنَّ ساعةَ التوقّف تكون قد حانت. لم تكن أيّ إشارةٍ غيرها لتقنِع باومان بالعودة إلى بيته.

أين كان يسكن باومان؟ أنّى لنا أن نعرف؟

السيّد بوامان (الذي كان يعرض له أن يبطئَ الخطوَ، كي يتابع حركات باومان المركّزة وهو ينظّف بقيّة من قشر فاكهة، كأنّما ينظّفُ مزهريّة ثمينة وليس قشرَ فاكهة) كان قد سأله ذات مرّةٍ أين يسكنُ، لكنّ المُوَسوَسَ -بوسعنا تسميته هكذا- المُوَسوس باومان اقتصر على الإجابة:

- في الرّقم 217.

وهو ما لم يسبق له قطّ أن قالَه.

على أيّ حالٍ، لم تكن بالكثيرة جداً القطع المعدنية التي كان ينتشلُها باومان، من جهةٍ، من حاوية القمامة، إن وضعنا في اعتبارنا حيزها وماديتها المحضة؛ ومن جهةٍ أخرى، من النّسيانِ،

فإن هذا يمنع ذلك الحطامَ من أن يختفيَ، مطحوناً بوساطةِ آلةٍ؛ آلةٍ مختصّة، قطعاً، في السّحق والإعدام ومحو الماضي. آلة من تلك الآلات التي، في دقائقَ معدوداتٍ، تجعل من عشرين بقيّةً، من عشرينَ شيئاً مختلفاً، شيئاً واحداً، بقيّةً واحدةً بلا شأن، مادّة غير قابلةٍ للقسمة وغير منتظمة بوسعها أن تكون الشّاهد على الطيِّ النّهائيّ لقصّة عظيمة، قصّة خيانة أو انتقام أو حبّ؛ أو، أيضاً، مجرّدَ بقايا حكاية ساذجة مملّة.

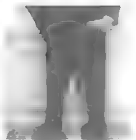
أحياناً كانت ظهيرةُ عملٍ (ساعةٌ لا أكثر) تمكّنُ باومان من أن يحمل إلى بيته، أو إلى مكانٍ آخر لا أحد قادرٌ على تحديده، من عشر إلى خمس عشرةَ قطعةً، لنسمّها كذلك. فالأمر يتعلّق، كما أسلفنا القولَ، ببقايا أشياء عضوية، لكن ليس دائماً. بالنّسبة إلى باومان، لم يكن ثمّة اختلافٌ بين قطعة معدن أو قطعة من قشر فاكهة. كان باومان ينقل الأشياءَ التي حصّلها في كيسٍ بلاستيكي. وهو يسير مبتعداً عن حاوية القمامة، كان يحملها راضياً، حتّى كنّا لنحسبَه أحد ملاّك محلاّتِ الأنتيكات وقد عثر، بضربة حظّ أو عبقرية، وسطَ القمامة على تُحفٍ عتيقةٍ، ما إن ترمّمَ حتّى تساوي قيمتُها الذّهب.

ذات يوم، قرّر بواامان أن يتعقّبَ باومان: كان يريد أن يكشف أين كان يحمّل تلك الأشياء المعلومة التي ينتشلها من القمامة.









بوامان والمراقبة

لكن لا شيء سهل. دلف باومان إلى ما يشبه، من الخارج، ورشةً. وظلَّ بوامان ينتظر، متردّداً بين أن يبقى مختبئاً أو أن يستسلم لفضوله.

باومان، الأحمق، خرج. كانت يده تحمل كيساً آخر، لكن هذه المرّة كان يُستشفُّ أنّ بداخله شيئاً مختلفاً. لحق به بوامان.

على النّقيض من الكيس المقرف الذي كان قد حمل فيه القمامة، كان هذا الكيس جديداً وغير منتن. كان بوامان، من مسافة، يشتمّ شيئاً أقوى من رائحةِ مخلّفات أو نظافةٍ؛ كان يستشعرُ الهالةَ، لنستعمل هذه الكلمة، التي تحيط بالأشياء المنظّفة، هالة تغشاها حاميةً إيّاها.

كان باومان قد بدّل كذلك ثيابَه.

هوَ ذا إذن ما كان بوامان يراه: رجلاً يرتدي ثياباً عاديةً، يحمل في يده اليمنى العاديةَ كيساً عادياً.

دخل باومان إلى السّوبر ماركت، وبوامان يتعقّبُه.

خلسةً، كان يراقبُ كلّ شيء.

ببالغ الحذر، وضع باومان، على الرفّ، وسط العبوات الأخرى المتطابقة بدرجةٍ أو بأخرى، ما يمكنُ أن نخالَه من بعيدٍ عبوة مشروبٍ غازيّ.

وكذلك فعل بقشرة فاكهةٍ كان من الواضح أنّه قد عبّأها بشيءٍ ما، ثمّ خاطَها.

لقد انتشل باومان أشياءَ من القمامة وأعاد إليها الحياة، مثلَ مرمّم لوحاتٍ قديمة. وها هو الآن يحاول إعادة هذه المنتجات إلى التّداول. وكأنّما بوسع الدّائرة، هكذا، أن تعود على بدءٍ، كَرهاً.

خرج بواماان من السوبر ماركت قبل باومان. كان قد رأى ما يكفي. سيواصلُ باومان سعيه إلى إصلاح ما لا يُصلح. سينتهي به المطاف سجيناً أو مهاناً. وسيكون جزاءً عادلاً، فكّرَ بوامان.

بغتةً ألفى السيّد بوامان نفسَه مُجبراً على التوقّفُ. أمامه رجلٌ يحمل استماراتٍ وقلماً. قدّم نفسه:

- كامر.

ثمّ مدّ إليه يدَه.

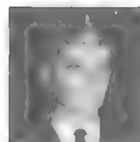
كان كامر، إن كان هذا حقاً اسمَه، يحمل في يدَيه استمارةً. من دون مقدّمات ومن دون أن يتحلّى بلياقةِ سؤالِ بوامان عمّا إذا كان مستعداً للإجابة عن أسئلته، سألَه:

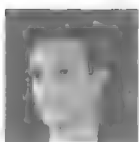
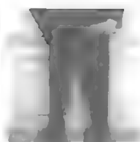
- هل سبق أن رغبتَ في قتلِ أحد؟

وهو ما أجاب عنه بوامان:

- نعم، بكلّ تأكيد.






كامر والتحقيق

ردّد كامر: نعم، ثمّ وضع علامةً أمام كلمة نعم في استمارته.

- هل تشعرُ بنفسك سعيداً حين تكرَهُ؟

فكّر بوامان لحظةً. حرص على أن يكون صادقاً؛ أحيانا لا، لكن أغلب الوقت:

- نعم!

- هل سبق لك أن أسأت معاملة حيوانات؟

- نعم.

- هل حدث أن اعتنيت بحيوانٍ؟

- لا. لا أحبُّ الحيوانات. لقد نشأتُ وترعرعت في المدينة، في وسطٍ خُلوٍ من الحيوانات. لم أحبَّ قطُّ الحيوانات.

وجّه كامر إشارة حساسة لبوامان. لا حاجة إلى الأعذار. نعم، لا. ثمّ إنّ المساحة على الاستمارة لا تسمح بكتابة أكثر من ذلك.

غمغم كامر، كأنّما يريد أن يعتذر كيفما اتُّفق على تصرُّفه غير اللّبق:

- حتّى وإن قال أحدٌ أشياء رائعةً، فلن أجد مكاناً لتدوينها.

أرأيت؟ (ثمّ أرى كامر بوامان الاستمارةَ). نعم، لا، ومربّعٌ أمامهما؛ وهذا المربّع لا نملكُ إلاّ أن نضع فيه علامةً أو نتركه فارغاً. الأمرُ سهل، أليس كذلك؟

بأدبٍ طلب بوامان ورقةَ استمارةٍ، لكي يجرّبَ، قال.

طلب كذلك من كامر قلمَ حبر. فأعطاه القلمَ بلطف. انحنى بوامان على الاستمارة -كذا كان انطباعُ كامر- مثل شخص يميل بجسده، وإحدى عينيه، على مجهرٍ. ذلكم كان التوتّر البديهي عند بوامان، توتّر إزاء المصغّر، إزاء الضّئيل.

ثمّ رفع بوامان رأسَه، كأنّما يخرج من الماء. لم يغرق، فكّرَ كامر في نفسه. الحقّ أنّه لم يغرق. لكن ماذا فعل؟

صارت الاستمارة مجدّدا في قبضة كامِر. لقد تمكّن الرّجلُ من أن يدوّن، بخطّ صغير جداً، خطّ مذهلٍ حقّاً، جملةً طويلةً داخل المربّع البالغ الصّغر الذي كان قد أُعِدَّ بحيث لا يضمُّ سوى علامةٍ.

سأل كامر وقد هَجُس بالُه: ماذا كتَبتَ؟

غمغم بوامان متهكّماً:

- لا أجيب إلا نعم أو لا، لكن بوساطة الحروف كلّها. (ثمّ

أضاف): إنّها قصيدةٌ، نعم، لا.

لم يزد كامر في الإلحاح.

طرح كامر سبعة أسئلةٍ أخرى:

1 – هل فعلتَ شيئاً أنت نادمٌ عليه؟

2 – هل أنت نادمٌ على شيءٍ لم تفعَلهُ؟

3 – هل تعتقد أنّ معاييركَ الأخلاقية هي فوق معايير الآخرين؟

4 – في رأيك، هل من البيّن أنّ حاسّةَ السّمع تستطيع أن تحلَّ من النّزاعات أكثر ممّا يحلّه النّظرُ؟

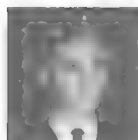
5 – لو أنّك فقدتَ عيناً بسبب حادثةٍ، هل ستحتفظ بالآراء نفسها عن العالم؟

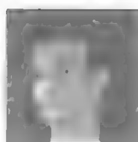
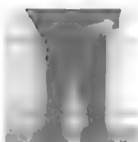
6 – لو لم يكن ثمّة أحدٌ يراكَ، لو لم يكن ثمّة أدنى احتمالٍ لأن يُكتشَفَ أمرُك، وكانت طوعَ يدِكَ قطّاعةٌ، هل ستخرّب، تخريباً نهائياً، إحدى تحف فنّ الرّسم؟

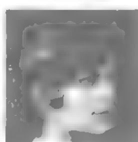
وأخيراً:

7 – هل تعرف رجل التشنّجات، كوهِن؟







كوهِن، رجل التشنّجات

كان عدد التشنّجات المبتلى بها كوهِن مذهلاً. ومصادرها متنوّعة كلَّ التنوّع. ونتائجها، علاوة على ذلك، غير قابلةٍ للتوقّع. ولنتصدّ إلى تصنيفها:

كانت ثمّة التشنّجات المعتادة - تُشهَدُ كلّ يومٍ، وضمن جميع الملابسات.

كانت ثمّة التشنّجات الدورية - مثلاً، تبدأ عينُه اليسرى في الارتجاف والغمز حين يبادره أحدٌ بالحديث.

وكانت ثمّة أيضاً التشنّجات اللا متوقّعة - التي لم تكن ترتبطُ، أو لم تكن تبدو مرتبطةً، بأيّ حادث مخصوص.

مَثَلُ ذلك، كان يعرض له أن يلوي فَمَه شِمالاً، كأنّما يدخل في نوبة تقلّص عضلي، كأنّما حانت ساعتُه، كأنّما وجهُه ذاكَ هو آخر وجهٍ يتلبّسُه قبل أن يأخُذَه الموت.

الحقُّ أنّ أولئك الذين لا يعرفونه، قد ينتابهم هذا الإحساس؛ لكن من يعرفون كوهِن يكتفون بالانتظار صابرين إلى أن يعود إلى وضعه الطبيعي؛ مثلما تنتهي موجةٌ عظيمةٌ إلى أن تُفصح عن البحر المنبسط خلفها. أصدقاءُ كوهِن كانوا معتادين على

الانتظار، معتادين على ألّا يؤوّلوا تعبيراته فوراً، مثلما نفعل دوماً في علاقتنا بالغير. فقد نلفي أنفسنا أمام شخصٍ يكذبُ لا إرادياً، ومن دون أن ينبس بكلمة، إذ تكفي حركاته وملامح وجهه.

ونعم، لا مندوحة لنا هنا عن استخدام هذه الكلمة: كوبروبراكسيا، أي تكرار الحركات البذيئة على أنّه تكرارٌ لا إراديّ، ذاك هو التعريف. حسناً، ما الذي كان يفعله كوهِن، رجل التشنّجات؟ بعض الأيام، ليس طيلة الوقت، وإنّما بعض الأيام، حين كان يصادف امرأةً، كيفما كان سنّها، أو مظهرها، ... إلخ. كان كوهِن يقبض على أعضائه التناسلية بيده اليمنى ويرتجُّ مهتاجاً إلى الأمام وإلى الخلف. كان يفعل كل ذلك، ولنكرّر القول، لا إرادياً (ليكن هذا واضحاً، وغير قابل للاعتراض). لم يكن كوهِن يرغب في فعل ذلك، وإنّما يده هي من كانت تفعل. لحظةً بعد ذلك، أي بعد ثوانٍ معدودة، كان يعتذر خجلانَ من نفسه. وكان يحسُّ نفسه أشقى النّاس، ذاك الذي لا يستطيع أن يتحكّم في جسده.

كان كوهِن شخصاً يتحكّم كلّ التحكّم في دماغه، أقلّه، ذاك الجزء من دماغه الذي يرتبط بالأفعال الإرادية. لم يكن مجنوناً، لا بل كان أبعد ما يكون عن ذلك: كوهِن كان يُعلّمُ في كليّة الآداب. كان أستاذاً محترماً؛ كان أيضاً مَسْخَرةً، هذا أكيد، لكنّه كان مُحترماً فكرياً بفضل كتاباته، وأعماله. والحالُ أنّ الكتابة كانت هي وسيلته

الوحيدة كي يثبت حضورَه، من دون أن يلقيَ به جسدُه في المطبّ، جسدُه الصّعبُ المراسِ والعصيّ على السيطرة. عدا ذلك، كان كوهِن يكرّس وقته، أكثر فأكثر، للكتابة، وكان ذلك بسبب العجز البنيوي الذي يعتري جسدَه. حين كان يكتُب، لم يكن يعاني من تشنّجات، أو على الأقلّ، إن اعتراه تشنّجٌ، فسيكون أحد تلك التّشنّجات التي تصيب جزأهُ العلويّ، تحديداً على مستوى الحاجبَين، اللّذين كانا يرجُفان مرّاتٍ عديدة متتالية. لكن في غياب المتفرّجين، في غياب الشّهود، لم يكن هذا التشنّج بالشّيء الذي يذكر، ولم يكن يخجل منه. كانت الكتابةُ إذن، بالنّسبة إلى كوهِن، المكان الذي يلجأ إليه هروباً، ليس من الآخرين ولا من المدينة، وإنّما هو هروبٌ من جسده أو من الوعي بأنّ جسده يعاني من خلل وظيفي. أحياناً، كان يتندّرُ على نفسِه، متسائلاً عمّا إذا كانت الكوبروبراكسيا ستتجلّى في كتابته إذا ما عزم على وصف امرأة، لكن، بالطّبع، لا شيءَ من ذلك حدث. كانت الكتابةُ تحميه.

جيرانُه وجاراتُه كانوا يعرفون تشنّجاته، مثلما يعرفون وظيفتَه المحترمة، وظيفة أستاذ أدب، ثمّ، الآن، كاتب. أمّا السيّداتُ، فَكُنَّ يعرفنَ منذ سنين طويلة مرضَه، عدم قدرته على التحكّم في جسده، لا بل كنّ يعرفن حتّى التفسيرات العلمية، تلك التفسيرات التي كان كوهِن يعطيها للنّاس الذين يصادفهم: مقالات منشورة في مجلاّت متخصّصة كانت تفصّلُ مشكلته، التي كان قد وصفها

عديدَ المرّات شفهياً، لكنّها إذ تصير، هنا، مكتوبةً بالأسود على الأبيض، تحوز سلطةً أقوى.

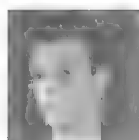
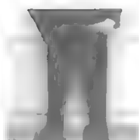
ومع ذلك، فإنّ السيّدات اللواتي كنّ منذ سنواتٍ طويلة يعرفن مرضه وتفسيرات مرضه العلمية (كوبروبراكسيا، كوبروبراكسيا!)، حين يصادفهنّ أستاذ الآداب، فيقبض على أعضائه التناسلية بطريقة فاحشة، لم يكنّ يستطعن، في تلك اللّحظة، أن يمنعن أنفسهنّ من التفكير في أنّه كان يفعل ذلك عن قصد، بشكلٍ متعمّد! إذ كان يشقّ عليهنّ تصوّر أن تتمّ حركاتٌ بتلك الدقّة من دون أن تكون للإرادة كلمَتُها في ذلك. عدم القدرة على تفهمّ علّته تفهّما تامّاً كلّف كوهِن هالةً سلبيةً، فما كان يقترب منه إلا قليل من النّاس. لا أحد -ونتفهّم هذا الموقف- كان يرغب في أن يوجد على مقربةٍ من كوهِن حين يقوم بحركته تلك أمام امرأة.

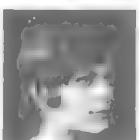
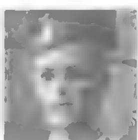
لذا كان كوهِن كائناً متوحّداً. فكان أن استقبل بشيءٍ من الذّهول دعوة رجلٍ يقطن في لندن، نقصد دياموند، يدعوه إلى قضاء أسبوعين عنده. وكانا قد التقيا سابقاً في محاضرةٍ، أثناءَها ألمّت بكوهِن كلّ تشنّجاته، في مدّة لا تتعدّى دقائق. كان دياموند إذن على علم بتلك الحركات الفاحشة اللاإرادية.

وكان دياموند أوّل شخصٍ يدعو كوهِن إلى قضاء عطلة عادية بصحبته. ظلّ كوهِن متردّداً.





دياموند والتّعليم

إليكم ما وقع، منذ زمن طويل، لدياموند، المعلّم في مدرسة ابتدائية.

مقابل المدرسة كان ثمّة مطعمُ إحدى الشركات. كانت النفايات تُكدّسِ على الدّوام في ساحةٍ مشتركة بين المؤسّستين، ويحرص عمّالٌ يومياً على جمعها. ثمّ أتى وقتٌ كفّت فيه الشركة عن دفع أجر العمال المذكورين، بينما لم تكن المدرسة تملك الإمكانات للقيام بذلك. خاض العمّال إضراباً.

لم يجمعوا القمامة ليومٍ، ثمّ يومين، ثم ثلاثة أيام... فقامت معركةُ مصارعةٍ ذراعية: رفضَ المدرّسون التكفّل بالأمر، والآباء كذلك. لم يرد أحدٌ أن يلمس القمامة. تلك لم تكن وظيفتهم.

صارت القمامة تتراكم.

بدايةً في ساحة المدرسة. وبـدَت سـلالُ المهملات، والحاويات الصّغيرة، ضئيلةً جداً، لا يكاد حجمها يتجاوز حجم كأس. وما كادت تنقضي أربعة أيّام حتّى فاضت القمامة محتلّةً مترين أو ثلاثةً حول الحاويات التي كان من المفترض أن تحويها.

ولم تتوقّف الأمور عند هذا الحدّ.

واصل العمّال إضرابَهم. كومةُ القمامة تمتدّ وتتعاظمُ (عمودياً / أفقياً). كان الأحياء ينتجون القمامة، والأطفال كانوا أشدّ حياةً من الأحياء: فكانوا ينتجون كميّةً أكبر من القمامة.

من الطّابق الأرضيّ، وعبر نوافذ القاعات المفضية إلى السّاحة، صار بالإمكان شمُّ الرّائحة منذ مدّة طويلةٍ، لكن بعد أسبوعين صار بالإمكان رؤية الآتي: مستوى الأزبال يرتفع، كان طوفاناً، فيضاناً يتقدم على مهلٍ.

مرّت الأيامُ. صارت الرّائحة أقوى أكثر فأكثر، والسّاحة كادت تُسدّ كلّها من تراكم النّفايات. وكلّ يومٍ تصيرُ أشقَّ شجاعةُ الإقدامِ على تنظيف كلّ ذلك. من أين نبدأ؟

انتهى الأمرُ إلى التّخلّي عن السّاحة، لقد صارت منطقةً محتلّة من طرف العدوّ. ذاك الجزء من المدرسة قد ضاع.

ما عاد أحدٌ يجرؤ على فتح النّوافذ. ونوافذُ قاعات الطّابق الأرضيّ كانت مسدودة بأكياس القمامة السّوداء. وصار يقالُ، بنبرة نصفِ فكِهة نصفِ مأساوية، إنّ الوقتَ، في الطّابق الأرضي، طيلةَ الوقت ليلٌ. لقد اختفى النّهار. كان ليلاً لا نهاية له، وعلاوة على ذلك، كانت النّتانة تملأ الأجواء.

ومن الجانب الآخر للساحة، كان العمالُ يُرَون وهم يُلقون

عبر نوافذ الطوابق العليا بأكياس قمامة أخرى. ما عاد بالإمكان رؤية الأرض، وما كاد الأسبوع الخامس ينتهي حتّى ارتفعت القمامة إلى ما يفوق ستّةَ أمتار. وأرخى اللّيل الدّائمُ والمنتّنُ سدولَه على الطّابق الأوّل.

أسبوعين بعد ذلك، شهدَ تلاميذ المرحلة المتوسّطة الأولى، بالطّابق الثاني، ذاك اللّيل -الذي تحملُه الأزبال- يبزُغ متسلّلاً بتكتّم. أوّلاً كيسٌ، ثمّ آخرُ... وكان يكفي أسبوعان لكي تصير الأكياس مكدّسةً لصق زجاج النّوافذ. ليلٌ برائحةٍ وبائية وطبيعةٍ لا نظيرَ لها: أكياس القمامة تنمو متسلّقةً النوافذ، وتضغط على الزّجاج، شأنَ كائناتٍ حيّة، غزاةٌ يحاولون بكلّ ما أوتوا من وسائل اقتحام حجرة الدّرس. قال دياموند، المدرّسُ، لتلاميذه: إنّ القمامة تريد أن تتعلّمَ. تريد أن تتعلّم القراءة.

على أنّ تلك الملاحظة، التي كانت شبه دعابةٍ، ما لبث أن اتّخذت منعطفاً خطيراً، مرعباً.

لنوضّح أنّه كان يعرض لدياموند، لمّا كان يدرّسُ والنّوافذ مقفلةٌ تماماً، أن يتساءلَ إن كان يجدر النّظر إلى الأمر على أنه محاولةٌ للعودة إلى الحضارة من طرف المادّة نفسها، من طرف المخلّفات المتضمّنة في القمامة. ذاك أنّ ما كان يوجد في الأكياس، هو ما أقصاهُ الكثيرون من عالم البشر، ما عُدّ غير ذي

فائدةٍ، وبالتالي من طبيعةٍ مخالفةٍ للطبيعة الإنسانية. إنّ القمامة، هي ما ينبغي رميُه خارجاً، بعيداً، بمعزلٍ عن المدينة.

صار الأمر فكرةً راسخةً لدى دياموند: إنّ القمامة تسعى إلى أن تعود إلى هذا العالم متوسّلةً بإحدى سماتِه الأكثر تميّزاً: استعمال الأبجدية. القمامة تريد أن تتعلّم القراءة لكي تبيّنَ أنّها لا تستحقُّ أن يُلقى بها، وأنّها لا تزال تنتمي إلى العالم المتحضّر. ذاك ما كان يعتقدُه دياموند، وما ظلّ يعتقدُه، إلى أن تمكّنت أكياسٌ مجتمعة، في لحظةٍ معيّنةٍ، بفعل تراكمها في السّاحة وقوّة الضّغط الذي مارسته على النوافذ، من أن تكسر الزّجاج فتقتحم القاعةَ، بشكلٍ دراماتيكي تماماً بالنّسبة إلى دياموند وتلاميذه، القمامةُ ومعهاً الرّائحةُ النتنة، رائحة مادة ما انفكّت تتفسّخُ يوماً عن يوم.

ما وقع له، في الطّابق الثّاني، كان قد وقع أياماً قبل ذلك لزملائه في الطّابقين تحتَه. لم يصمد الزجاج تحت الضّغط، فبدأت المخلّفات تقتحم القاعات.

ومع الوحشية التي اقتحمت بها القمامة قاعة الدّرس، مهشّمةً الزجاج، إلا أنّه لم تقع إصابات. كان دياموند قد أبعد، بوقتٍ طويلٍ قبل ذلك، طاولات تلاميذه.

لكن هو ذَا ما كان ينبغي القيام به الآن: مواصلة الحركة التي

أعطى انطلاقتَها. كان على التّلاميذ مواصلة زحفهم مبتعدين، أكثر فأكثر، عن النّوافذ.

كانت القاذورات قد اجتاحت تماماً الممرّ على امتداد النّوافذ. لكن، في الوسط وفي الجانب الأيسر من القاعة، كانت الحضارةُ الحقّ مصرّة على ألّا تُذعن، مثلما كان دياموند يحرص على أن يردّد. هكذا كان دياموند، في ذينك الجزأين من القاعة، يدرّس صيَغاً لفظيةً معقّدة ويحاول أن يجعل تلاميذه يتعلّمون بعض مبادئ التّاريخ.

على أنّ الفيضان لم تكُن تُرى له نهاية. ففي مكانٍ ما، من الجانب الآخر، كان إنتاج القمامة متواصلاً. ومن الأعلى، من السّماوات (إذ لم يكن ثمة مرجعٌ آخر يقاسُ به)، بفواصل زمنية شبه منتظمة، كان يسقطُ كيسٌ ممتلئ قمامة. من ذا الذي بوسعه الإقدام على فعلٍ مماثل؟ ألا يعي سكّانُ الطوابقِ العليا أنّ تحتهم مدرسة، مدرسةً تكاد تكون الآن مدفونةً كلّها؟

لكن أيّ أهميّةٍ للشّرح حين يكون الفعلُ هو المستعجل؟ (لندقّق أنّه، بخصوص الأكياس، لم يكن ثمّة من حلّ: كلّ محاولةٍ لسحب أحد الأكياس من القاعة للتطويح به خارجاً، كانت منذورة للفشل. وتلك التي كانت تتكدّس في السّاحة كانت تشكّل ما يشبه الجدار. وما من مادّة تستطيع عبور جدارٍ).

باقي المدرّسين كانوا قد أذعنوا جميعاً للأمر. صارت المدرسة قفراً. وأُخليَت الطوابقُ الدُنيا التي اجتاحتها المخلّفات كلّياً. لكنّ دياموند ظلّ صامداً يرفض الاستسلام. لقد قال بوضوحٍ إنّه سيواصل التدريس، ويستمرّ في تسجيل أسماء المتغيّبين من التلاميذ. من لا يحضر الدّروسَ لن ينتقل إلى المستوى الموالي.

بمكابدةٍ، متخّطّين أكياس القاذورات المغلقة، حريصين على أن لا ينزلقوا في النفايات المنفلتة من الأكياس المبقورة، كان التلاميذُ، كما معلّمهم، يصلون في التّاسعة بالضّبط إلى قاعة الدّرس التي ما انفكّت تزدادُ ضيقاً، فتصير، أكثر فأكثرَ، أشبهَ شيءٍ برواق -رواقٍ متوازٍ مع النوافذ الذي كانت القمامة تتراكمُ على امتدادها كأنّما هي مكبٌّ نفايات. وفي هذا الرّواق، الذي لا يتجاوز عرضه مترين، كان الآنَ يتزاحمُ اثنان وعشرونَ تلميذاً ومعلّمٌ؛ معلّمٍ عنيدٌ، دياموند. معلّمٌ يصرُّ على أن يبرهن أنّ الهمجيّة لن تفلَّ أبداً عزيمةَ الحضارة.

منذ التّاسعة صباحاً كان التلاميذ ومعلّمهم، محصنّينَ الوجه والأنف بمنديل، يبدون فعلَ مقاومةٍ.

يقول دياموند للتلاميذ: «صباح الخير»، وكأنّما كلّ الأمور تجري مجراها العادي، ثمّ يشرعون هم في إزاحة الأكياس التي اجتاحت الرّواق في اللّيلة الماضية.

صارت ثلاثة أرباع القاعة الآن محتلّة من طرف النفايات، ولم تبقَ منها بقيّة اللهمَّ إلا ذاك الحيّزَ الضيّقَ. وهناك، في ذاك الفضاء المحميّ المطوّق كان الجميع، مكدّسين بعضهم لصق بعض -اثنان وعشرون تلميذا، اثنان وعشرون طفلاً- يواصلون الإنصاتَ لمعلّمهم، السيّد دياموند، الذي، وضدَّ كلّ التوقّعات، استطاع أن ينهيَ السّنة كما هو مخطّطٌ، مكملاً المقرّر الدّراسيّ. ومن هناك، من تلك القاعة تخرّجَ، ليسَ اثنانِ وعشرون تلميذاً من تلاميذ دياموند لكي يدخلوا إلى قسم المستوى الموالي؛ وإنّما اثنان وعشرون رجلاً على أهبة الدّخول إلى الحياة. أولئك التلاميذ الاثنان والعشرون، الذين قاوموا مع دياموند حتّى النّهاية -من دون أن ينكص منهم أحد- وقد صاروا الآن رجالاً؛ كان يقال عنهم إنّهم ليسوا رجالاً عاديين، وإنّما عناصر من جبلّة مغايرة. كان يقال عنهم، بصوتٍ خفيضٍ يصلُ الحاضرَ بالأسطورة القديمة، إنّهم الآن وقد صاروا بالغين، همُ الاثنان وعشرون رجلاً الذين سيجنّبون العالم الضّياعَ.

كلّ واحدٍ منهم شقّ طريقَه، ووجد وظيفَته. كثيرون منهم هاجروا من المدينة، والبلد، لكن إن لاقتهم الصّدف، في الحال يتعرّفُ بعضهم بعضاً. لا بل حتّى النّاسُ، حين يصادفون أحدهم يهمسون: إنّه واحدٌ من الاثنين والعشرين، واحد من الاثنين والعشرين طفلاً.

وبعد وفاة مدرّسهم، السيّد دياموند، صار الأمر أكثر حقيقةً:
هؤلاء الرّجال الاثنان وعشرون أحياءٌ ليقاوموا.

واحدٌ من أولئك الرّجال الاثنين والعشرين كان اسمه **آينهورن**،
وكان يعمل في استقبال فندق.





آينهورن والفندُق

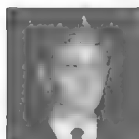
هل يعقل أنّ رجلاً قوياً، رجلاً من تلك النِّعَم الاثنين والعشرين التي لا يزال العالم بالنّسبة إليها عقلانياً وذا قدَمين، هل يعقل أن ينتهي المطافُ بأحد أولئك الرّجال واقفاً بباب فندقٍ من الدّرجة الثانية؟ الجوابُ: نعم.

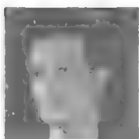
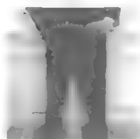
كان آينهورن يدير مبنىً صغيراً يمكن أن نصفه، إن تخلّينا عن كلّ عفّةٍ زائفة، بأنّه فندق علاقاتٍ عابرة. إلى كلّ غرفةٍ كان يأتي عشراتُ الرّجال، فيستعملون السّريرَ نفسَه، في اليومِ نفسه، وامرأةً واحدةً.

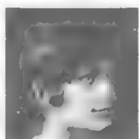
وكان آينهورن يظلُّ واقفاً أمام الباب، ويقول «صباح الخير»، باحتشام. ثمّ، بالدّاخل، ومن خلف المنضدة، كان يستحصل نقودَ الزّبون، تلك النّقود الذي يقتسمها فيما بعد مع المومس. قسمةً جائرة بالطّبع: عشرون بالمئة للمرأة، وثمانون بالمئة لآينهورن الذي كان هو صاحب الفندق، وكانت عليه، بالضرورة، مصاريف.

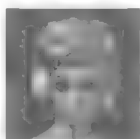
ذاك المساء، ومحض مصادفةٍ، استقبل آينهورن أحد أغرب الزوّار، ممّن لم يسبق أن زارَ نظيرٌ لهُ مثل هذا الفندقَ الهادئ، فندق العلاقات العابرة: غلاسِر.







غلاسر والبطارية

دلف رجلٌ أربعينيّ من الباب، وفي إثره شيءٌ وشخصٌ. الشخصُ، سرعان ما تبيّنّاه، كان فتىً يافعاً يدفع عربةً يدويّةً بها شيءٌ، آلةٌ، كما سنُدركُ لاحقاً. وبعدما نُفحَ الفتى بضع قطعٍ نقديّة، انصرفَ. أمّا الرّجلُ، فكان اسمُه غلاسِر، ومن صدره كانَ يتدلّى سلكٌ كهربائيٌّ موصَلٌ ببطاريّةٍ عظيمة، يفوق وزنُها عشرين كيلوغراماً. كانت بطاريةً شاحنةٍ.

وضّح غلاسر: إنّه قلبي الاصطناعي. لقد صاروا اليوم يصنعون قلوباً أصغر بكثير، لكن بما أنّ هذا ما يزالُ يعمل...

كاد آينهورن يتلفّظُ بشيء، لكن غلاسر قاطعه على الفور متسائلاً:

- هل لديك واحدةٌ فارغة؟

أراهُ آينهورن الكاتالوغ الصّغير، وأشار قائلاً:

- هذه وهذه.

اختار غلاسر ذات الشعر الأسود.

- موجودة في الطّابق الأوّل.

قال غلاسر:

- سأحتاج مساعدةً لحمل البطّارية.

دنا آينهورن، أبعد السّلك الذي يصل العتاد المعدنيّ بقلب الرّجل، وبحركة سريعة رفع تلك الحمولة الثقيلة.

قال لاهثاً:

- هيّا بنا!

شرعا معاً في صعود السلالم. على مهلٍ. في المقدّمة، ذاك الرّجلُ، غلاسر. في الذّيل، آينهورن، حاملاً قلبَ زبونِه الاصطناعيَّ. وكدأب هذا الضّرب من الأعمال، كان التّقّدم يتمّ بأبطأِ إيقاعٍ ممكنٍ، خاصّة من طرف آينهورن، بسبب الثقل الذي كان يحملُه. في المقدّمة، غلاسر الذي، ممسكاً السّلك المتدليّ من صدره، كان يرتقي السلالم درجةً درجة بحذرٍ؛ وفي الذّيل، آينهورن المتين، والذي كنّا لنحسبَه في تلك اللّحظةَ هو المريض، أو على الأقلّ يجتاز أزمةً صحيّةً واضحة.

منتصف الجزء الأوّل من السلالم طلب آينهورن أن يتوقّفا. وضع البطارية أرضاً. كان الإعياء يستبدّ به.

- قُلتَ لي كم وزنها؟

أجابه غلاسر:

- عشرون كيلوغراماً، لكنّي لم أتحقّق من الأمر قطّ.

وبينما يستعدّ آينهورن لأن يرفعَ البطارية من جديد، تناهى صوتٌ أنثويّ من أعلى السّلالم. كانت المرأةُ، المومس، قد خرجت تستقبلهما، تستقبل هذه البعثة الصّغيرة. وكانت قد أُخطرت -قبل ذلك- بقدومِ زبونٍ، بيد أنّ الضّجيج الذي كانا يطلقَانه أثناء صعودهما، كان مَن القوّة بحيث لم تستطع المقاومة. أرادت أن تنظرُ ما يجري.

متأرجحةً بين السّخط والخشية، سألته ما ذاك. لم يحر غلاسر، الزّبون، جواباً، وكان آينهورن هو من أجابها.

- إنّه قلب اصطناعي. لكن كلّ ما عداه يشتغل كما ينبغي.

ثمّ ضحك بفظاظة.

وابتسم غلاسر بدوره.

أشار آينهورن إلى المرأة باتّجاه الغرفة، فعادت إليها، من دون أن تنبس بكلمة.

ثوانيَ بعد أن فرغ من الضّحك، شعر آينهورن بأنّه قد استعاد قواه. فقال: «هيّا بنا» و، مثل محرّك، انحنى و«هـوب!» رفع

البطارية، بينما واصل غلاسر بحرص شديدٍ الإمساك بالسّلك المتدلّي من صدره.

- الخطرُ كلّ الخطر أن تنزَلق، فهمتَ؟ ستسحب البطّارية خلفك، وأبقى أنا هنا وحيداً بلا بطارية، وبلا بطاريةٍ قُضيَ عليَّ.

لم يجب آينهورن. كان حملُه ثقيلاً جداً لدرجة أنّه كان في عالم آخر، عالم الجهد البدنيّ الخالص. لم يكن يسمع شيئاً.

بلغا الطّابق الأوّل، فهمس آينهورن «إلى الأمام مباشرةً» مع إيماءة تشير إلى أنّهم الآن سيذهبان حتّى نهاية الطّريق، وأنّه لن يضع البطارية أرضاً مرّةً أخرى. سيذهبان حتّى الغرفة، من دون توقّف!

في الغرفة، كانت المومس تنتظر، وقد جلست على السّرير، وتخفّفت في ملبسها. وجهها شاحبٌ، وقلِقةٌ.

دخل غلاسر أوّلاً، ممسكاً السّلكَ لصق صدره. وعلى بعد أقّل من مترٍ خلفه، أقلّ من مسافة ذراعٍ، آينهورن، وقد انحنى ظهره من ثقل البطّارية، وتفصّدَ جبينُه عرقاً.

كان الزّبون غلاسر قد دفع ثلاثة أضعاف السّعر العادي، لكن في هذه اللّحظة بالضّبط، وتحديداً قبل أن يترك البطاريةَ التي كان يبدو أنّ وزنها يزداد ثقلاً كلّ ثانيةٍ، أسفَ آينهورن لأنّه لم يطلب

سعراً أعلى.

غمغم مالك الفندق، آينهورن: «أين أضع هذا؟» قالها بنبرةٍ تكاد تكون ذليلة (شديدة الشّبه بالنّبرة التي ربّما نطقها الفتى الذي حمل البطارية في العربة). بردّة فعلٍ أدنى غلاسر يده من جيبه كي يخرج منه قطعاً نقدية، لكنّه أحجمَ في النّهاية عن القيام بفعلٍ قد يكون مهيناً.

– هنا؟ تساءلَ آينهورن بجهدٍ جهيدٍ، موجّها كلامَه هذه المرّة لغلاسر والمومس على حدّ سواء.

والحال أنّ هذه الأخيرة (أي المومس) كانت جسدياً معنيّة بالأمر، ما دام من الضّروريّ وضع البطّارية قريباً بما يكفي من السّرير حتّى يتمكّن الزّبون من القيام بعلاقة جنسية من دون أن يُفصَل عن قلبه الميكانيكي. أعطى غلاسر تعليماتِه، فوُضعت البطّارية (ذات التوتّر الكهربائي 15 فولت، كما بيّنَ) أرضاً، بين المنضدة ورِجل السّرير، كأقرب ما يكون، بحيث يحصل غلاسر على طول سلك كافٍ كي يشتغلَ، مثلما كان مرجّحاً أن يفعَل، ما إن يصير فوق المرأة، ومن دون أن تتسبّبَ حركاته في قطعِ الارتباط بالبطارية. ذاك أنّ البطارية إن كانت موضوعةً أرضاً، فسيسري السلك الكهربائي على الملاءات جنبَ الزّبون.

وإذ تحرّر آينهورن من ثقل حمله، تنفّس عميقاً؛ لقد أُنهكت قواه. ومن تلقاء نفسه، بادرَ إلى دفع البطارية -بالقدَمين واليدين- بضعة سنتمتراتٍ إضافية تحت السّرير.

قال متسائلاً:

- هكذا؟

أجابه غلاسر بأنّ الوضعَ على أمثل ما يكون.

إذّاك غمغم آينهورن بأدبٍ:

- حسناً، أترككما إذن.

ثم خرج مُقفلاً بابَ الغرفة وراءَه. على أنّه توقّف، بضعةَ أمتارٍ أبعدَ من الغرفة، وحاول تَسمُّعَ ما يجري بداخلها. مومسٌ أخرى، من غرفةٍ بأقصى الطابق، سألتْه بإيماءةٍ عمّا إذا كان بإمكانها الاقتراب. كان قد اعتراها الفضول. لكنّ آينهورن، مالك الفندق، أشار لها بيده بأن تبقى بعيداً.

ظلّ آينهورن في مكانه، على بعد مترين من الباب، ساكناً تماماً، كاتماً أنفاسَه ومركّزاً حصراً على الأصوات القادمة من الغرفة. وبعد بضعة أصواتٍ مبهمةٍ لا تبينُ، انتهى إلى سماع تلك الأصوات المألوفة لديه: الرّجلُ ينخر، وبين الفينة والأخرى،

تطلق المرأةُ أنّةً خفيفة؛ لازمة أغنيةٍ يحفظها آينهورن عن ظهر قلب. كان منهكاً، لكنّ الأمور سارت على ما يرام.

ربع ساعةٍ بعد ذلك، رنَّ جرسٌ: المومس، **الآنسة غولدبِرغ**، تناديه. بالعادة، ما إن تنتهِ المضاجعة العابرة، ينسحب الزّبون من دون أن يثير الانتباه. لكن بالنّظر إلى الملابسات، كانت الآنسة غولدبيرغ بحاجة إلى العون.

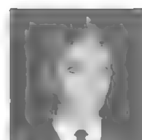
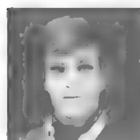
صعد آينهورن. وكان، دقائق قبل ذلك، قد خشيَ وقوع الأسوأ: أن لا يتحمّل قلب الزّبون، غلاسر، شدَّةَ العمليّة فوق المومس التي ما تزال تحتفظ بكامل إمكاناتها. لكنّ كلّ شيء انتهى على ما يرام.

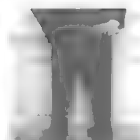
أثناء ذلك كانت الآنسة غولدبِرغ قد فتحت بابَ الغرفة. قرب السّرير كان غلاسر باسماً، وقد ارتدى ملابسهُ، لكن من دون أن يستطيع التحرّك من مكانه.

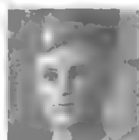
كان آينهورن متعباً لدرجة أنّه طلب من الآنسة غولدبِرغ مساعدَتَه. مكتفيةً بارتداء روبِ حمّام فوق ملابسها الدّاخلية الحميمة، ومفعمةً بالطّاقة وحسن النيّة، تطوّعت الآنسة غولدبرغ لتحمل من الأمـام، متحمّلةً -في أسوء الوضعيات- الجزء الأكبَر من ثقل البطارية. وعليه، نزلت الآنسة غولدبِرغ السلّم

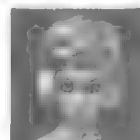
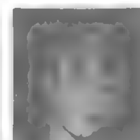
متراجعةً بظهرها، حاملةً بإصرارٍ الكيلوغرامات العشرين أو أكثر. وفوقها بدرجةٍ، كان آينهورن يمسك البطارية من جانبها المقابل (المجهود الذي كانَ عليه بذلُه كان أقلَّ بكثير). وبعدهما مباشرةً ينزلُ غلاسر، الزّبون. من دون أن يغفل لحظةً، كان يحرص على أن لا يترك الآخرَين يبتعدان عنه كثيراً. كان يعرف حقّ المعرفة أنّ في هذا الموكب الغريب شيئاً جوهرياً بالنّسبة إلى حياته.



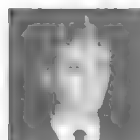
غولدبِرغ والسّاعة

بعد العمل، وقد ارتدت ملابسَ من تلك التي قد ترتديها أيّ امرأةٍ غيرها، صادفت الآنسةُ غودلبِرغ، المومسُ، الكفيفَ، السيّدَ غولدشتاين، الذي كانت تعرفه حقَّ المعرفة والذي قد اجتمعت به عديدَ المرّات في بيت العلاقات العابرة، لكنّها في هذه المرّة أنكرت معرفته (وبالنّظر إلى ملابسات هذا اللقاء الذي يتمّ علناً، فقد فعلَ هو مثل فعلها).

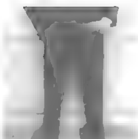
سألت الآنسةُ غودلبِرغ، المومسُ، عن السّاعة، فأجابها السيّد غولدشتاين. كان السيّد غولدشتاين يملك ساعةً تشتغل بطريقة بريل، كان شديد الاعتزاز بها، الأمرُ الذي كانت تعرفه الآنسة غولدبِرغ، ومن هنا نفهم سبب سؤالها (كانت تحبُّ إدخال السّعادة إلى قلب العجوز غولدشتاين).

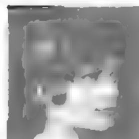
ولنوضّح أنّ غولدشتاين كان ثرياً بما يكفي ليفرض وُدَّ أيّ كانَ.

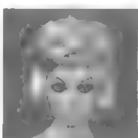


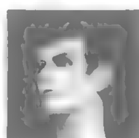










غولدشتاين والجدول الدّوريّ

كان عمرُه قد جاوز الخمسين، وقد صار أعمىً في سنّ الثانية والعشرين إثر تعرّضه لحادث. وفضلاً عن كونه قد ورث ثروةً معتبرةً، وأنّه يتردّدُ على ماخور آينهورن، كان غولدشتاين يبحث عن السكانديوم، وهو أحد العناصر الأشدّ ندرةً في الكون.

كان غولدشتاين يحمل في جيبه على الدّوام الجدول الدّوري لمندلييف. أحياناً كان غولدشتاين، على شاكلة سائحٍ يقلّبُ خارطة المدينة، يستلُّ من جيبه قطعةَ ورقٍ سميكةً وينشرُ طيّاتها مرّاتٍ عديدة، فتُفصح الورقة عن الجدول الدّوريّ الشّهير، جدول العناصر الكيميائية. الجدول الذي لم يكن بمقدور غولدشتاين، وهو الأعمى، رؤيته، ولكنّه مع ذلك كان يحدّق فيه بعينيه الفارغتين بطريقة تكادُ تكون مجنونة، مثلما يعود شخص، بعد تيه دام ساعاتٍ وساعات، إلى التحديق مرّةً أخرى، مفعماً بالرّجاء، في بوصلته وخريطته.

كان غولدشتاين يحكي على الدّوام هذه القصّة: أثناء مراسيم جنازة مندلييف، بسان بطرسبورغ، كان أمام تابوته المحمول رجلان يرفعان، مثل راية بلدٍ أو حزب، الجدول الدّوريّ الذي كان هو واضعه.

لم يكن طموحُ غولدشتاين إضافةَ عنصرٍ جديد إلى الجدول الدّوري، وإنّما فقط أن يجمّع بين يديه بضعةَ آلافٍ من غرامات السكانديوم. (لم يكن يبحث عنه بنفسه. فلأنّه كان مليونيراً، كان يشتري السكانديوم. كان يبدو كأنما يسعى إلى التعويض عن فقدان البصر بكسب هذا العنصر الدّقيق والشديد النّدرة).

حين كان غولدشتاين يستغرق في أحلام اليقظة، كان يفكّرُ في حاله داخل تابوته: جسدُه محاطٌ بملايين الغرامات من السكانديوم، ذلك العنصر النّادر. يوتوبيا غولدشتاين: أن يضمّ تابوتُه من السكانديوم قدرَ ما يحويه باقي العالم.

كان هوى الأعمى شائعاً معروفاً. فصار آينهورن، مالك بيت الدّعارة، وقد أُخبر بهوس غولدشتاين، يهمس إليه على سبيل الدّعابة، كلمّا تردّد على بيته: «ولكن ليس لدينا هنا سكانديوم»، مع أنّه يعرف حقّ المعرفة أنّ غولدشتاين أتى يلتمس لذّةً جسدية محدّدةً جداً، وليس السكانديوم الضّئيلَ.

«الرّوديوم، والإيريديوم، والسيلينيوم، والأزميوم، إليكم بعض منافسي السكانديوم»، يبيّنُ غولدشتاين محاولاً أن ينقل إلى محيطه حبّه للعناصر الضئيلة والنّادرة.

وفيما وراء هذه الزّلات، كان غولدشتاين يحفظ سراً أكثر

أهميّةً بكثير.

فحتى تلك اللّحظة تمكّن المليونير الأعمى غولدشتاين من إخفاء مثليّته الجنسيّة. ومنذ أربع سنوات يتّخذ عشيقاً يدفع له مبلغاً شهرياً يفوق بكثير السعر المتعارف عليه. عشيقه كان يدعى غوتليب، وما يسوِّغ المبالغ التي يمدّه بها هو الآتي: بطلبٍ من الأعمى وشَمَ العشيقُ على ظهره جدول مندلييف الدّوريَ بأحرف بريل.

حين كان غوتليب يتعرّى أمام النّاس، لم يكن بمقدور أحدٍ أن يفهم ما وُشم على ظهره. فما كان واضحاً بالنّسبة إلى يدَي الأعمى غولدشتاين -الجدول الدّوري للعناصر كاملاً (والذي يتمّ تحديثه كلّما اقتضت الضّرورة)- لم يكن كذلك بالنّسبة إلى الآخرين، أولئك الذين لا يتأمّلون الوشوم باللّمس وإنّما بالبصر. في نظرهم، لم يكن ذاك حقاً وشماً، ما دامَ لا يحوي أشكالاً ولا كلمات ولا خطوطاً -ولا علامةَ واحدة معقولة. فأيّما شخص تمعّن في ملاحظة ظهر غوتليب، فلن يرى فيه إلا آثاراً يسهلُ الخلط بينها وبين نُدوب. أو قد تكون تجمُّعاً لبقعٍ على الجلد، هي نتيجةُ داءٍ مجهول، ولهذا السبب، يكاد يكون مرعباً- ذلكم ما كانت العيونُ الطبيعية تراهُ على ظهر الشّاب غوتليب.

كان غوتليب يستحقّ كلّ فلسٍ يأخذه من العجوز غولدشتاين،

ويكفيه أنّه قد تخلّى إلى الأبد عن جمال ظهره. فهذا الأمرُ الواقع، الذي كان بالإمكان إخفاؤه أثناء الوضعيات الاعتيادية، في الأماكن العامة، سيستمرُّ إلى الأبد تحت عينَي وأصابع أيّ عاشقٍ آخر.

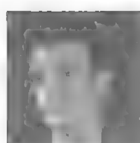
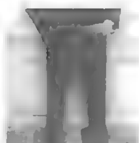
وينبغي القول إنّ هذه السلبية التي يبديها غوتليب ليست نتيجة عقدهِ صفقةً فحسب. ذاك أنّه حين قبِل وضع هذا الوشم، كان مغرماً بالعجوز غولدشتاين الذي، وإن كان أعمى، كان ما يزال يحتفظ بملامح جذابة.

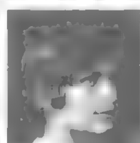
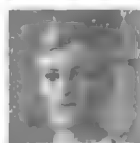
وبعد بضع سنواتٍ كان غوتليب قد ندمَ، لكن سبق السيف العَذَل: لقد أصبح يحمل في ظهره جدول مندلييف. لقد حمل على ظهره، حرفياً، سراً، هو في الآن نفسه لعنةٌ، لا فكاكَ له منه. ذاك أنّ هوس العجوز غولدشتاين بالجدول كان ذائعاً معروفاً، إلى درجة أنّه لو قيّض إلى أحدٍ أن ينتبه إلى ما نُقش على ظهر الشّاب غولدشتاين، خاصّة وقد جُعل السكانديوم بارزاً -إذ وُضع تحتَه ما يشبه سطراً ملموساً- فإنّه سيدرك على الفور في أيّ جهةٍ من المدينة قد عاش سنواتٍ طوال، ويستشعر، خفيةً، حضورَ جسد العجوز الأعمى، غولدشتاين.

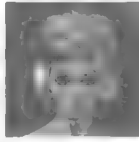
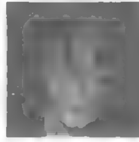
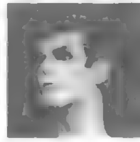
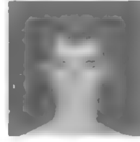
على أنّ العالمَ واسعٌ والحياةَ مديدةٌ. وقد عاش غوتليب حياةً حافلةً عامرةً، على الرّغم من تلك العلامات في ظهره.





غوتليب وظهره

عبثاً كانت الاستدارةُ شطرَ أيّ اتّجاهٍ، فلا سبيل إلى الفكاك: على ظهره، تلك العلامات دائماً وأبـداً. يستدير غرباً فتتبعه العلامات. يستدير شرقاً فتتبعه العلامات. يحني رأسَه أرضاً، وعلى ظهره تبقى العلامات. يرفع رأسَه كي يصوّبَ نظرَه إلى السّماء، وُسعَ إمكانه، وعلى ظهره، ساكنةً، أبداً: العلامات.

ذلكم ما شعر به غوتليب بعدما ابتعدَ عن غولدشتاين، وما ازداد تعمّقاً بعد موته: كان يحسّ نفسَه ملاحقاً، وكان يحملُ ملاحِقَه على ظهره. لم يكن يلاحقُ نفسَه، ولكن على ظهره كان يوجد ما يلاحقُه: وشمُ جدول مندلييف.

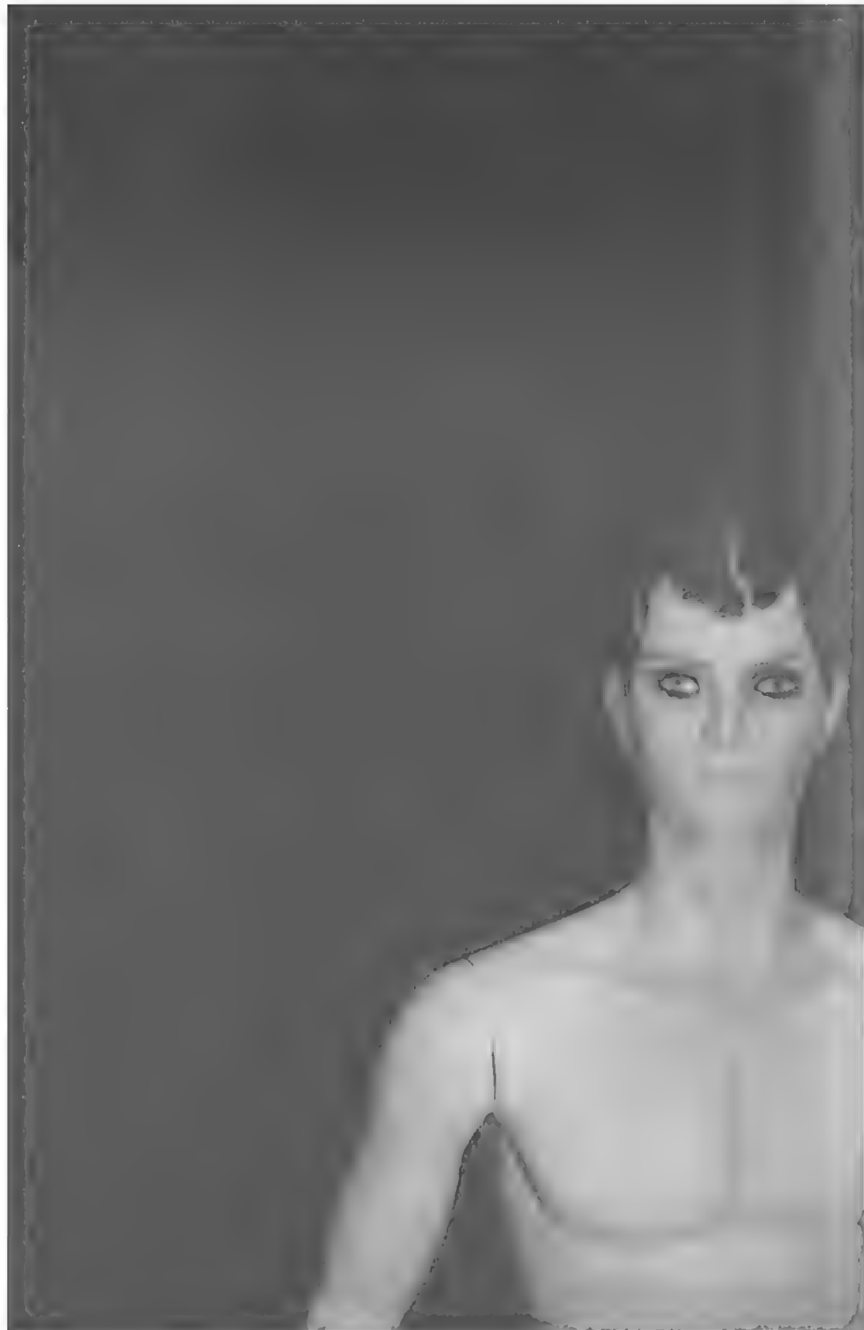
عاش غوتليب حياةً صعبةً. كان يعهُر.

صار ظهرُه موضوعاً لطقوس انجذاب جنسي منحرف، مع تنوءاته البارزة. ما معنى هذا؟ ما انفكَّ يُسأل. وبعد طولِ كذب، انتهى غوتليب إلى قول الحقيقة. وكان للحقيقة أثرٌ مذهل. انتشر الخبر. وتضاعف عدد الزبائن فجأةً. لقد وشمَ هذا الرّجُل على ظهره، بطريقة بريل، جدولَ العناصر الدّوري.

الليلةُ التي ستقود غوتليب إلى القتل بدأت رومانسيةً بعشاءٍ. رجلٌ موفور المالِ.

لاحقاً، حين صارا في الغرفة، أوغل الرّجلُ بعيداً في مطالبه. رفض غوتليب. أصرّ الآخر. ثمّ بغتةً انطلق، ما كان يشبه في البداية تقريباً، صراعاً غرامياً، قبل أن ينجرف سريعاً إلى عالمٍ آخر وزمنٍ آخر -ذاك العالم الذي فيه يبلغ الخوف والإثارةُ مستوى يصير ممكناً عندَه- في الحدّ الأقصى، القتلُ.

قتلَ غوتليب ذاك الرّجل. ثمّ أراد أن يعرف اسمَ قتيلهِ الحقيقيَّ. قلّبَ محفظتَه. وجد بطاقة هويّته. الرّجلُ الذي قتلَه يسمّى غرينبرغ. اسمٌ جميل.





غرينبرغ والكرسيّ الكهربائيّ

حين قرأ الاسم على بطاقة الهويّة، حين قارنَ الصّورة بالوجه الميّت على بعد أقلّ من مترٍ منه، انتابَ غوتليب شعورٌ غريب، مثل شخص، ضمن سياقٍ وديّ وهادئ، يسعى في التّعارف: غوتليب أقدّم لك غرينبرغ، غرينبرغ هذا غوتليب. لكن الآن كان أحد طرفي التعارف ميّتاً والطّرفُ الآخر قاتله.

عُثر على غوتليب، وقبض عليه، وحوكم بالإعدام.

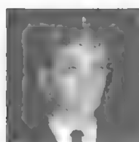
أمّا غرينبرغ فلم يكن بوسعه أن يحضر موتَ قاتِله. ومع أنّ تلك كانت هي القاعدةُ، إلا أنّها تظلّ مع ذلك غير عادلة.

غوتليب الآن بجانب الكرسيّ الكهربائيّ.

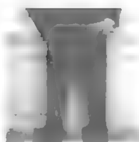
أخذ موضعه بالكرسيّ محاطاً برجلين، كأنّما واقفين على سريره: متيقّظين يهتمّان به، ومثل ممرّضين، أخذا ذراعه برفق، وسألاه عدّة مرّات عمّ إذا كانا يؤلمانه.

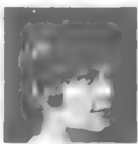
أحد الرّجلين المنهمكَين في تنفيذ الأوامر كان يدعى غرينفيلد. وهو الذي ربط الحزام حول غوتليب كي لا يسقط بعد الصّدمة. والحال أنّه، لم يسقط؛ لدرجة أنّ غرينفيلد افترّ عن ابتسامةٍ رضا خفيفة، سرعان ما أسفَ عليها. آنذاك، في تلك اللّحظة، لم يكن في وظيفته.

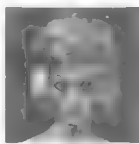
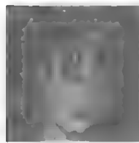


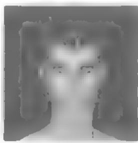


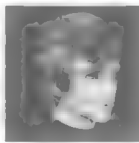










غرينفيلد والتّجاربُ العلمية

لم يكن غرينفيلد على الدّوام يشتغل لحساب إدارة السّجون.

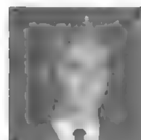
وإنّما هي آخر وظيفةٍ يشغلها -بما أنّ موعد تقاعده صار وشيكاً- لكنّه قبل هذه الوظيفة كان قد مارسَ العديدَ من الوظائف الأخرى. لكن قد يكون شغلُه بمختبر البحث العلميّ هو الشغلُ الذي خلّف فيه أبلغ الأثر. كانوا يجرون في المختبر تجاربَ على قرَدة الشمبانزي، وكانَ يُعهد إلى غرينفيلد بأشقّ المهام: كان مكلّفاً بحقن الحيوان بالحقنة المميتة، ثمّ، بعد ذلك، يكون عليه أيضاً أن يمدّ أطراف الشمبانزي على الطّاولة حيث تُجرى على الحيوان، عمليات التشريح والتحاليل والتجارب.

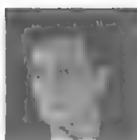
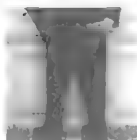
كان يعمل في المختبر إبّان حقبةٍ زمنية بدأت تظهر فيها بوادر الاهتمام بمسألة حقوق الحيوان، من دون أن يكون قد وُجد بعدُ قانون صارمٌ بخصوص المسألة. في المختبر المذكور، وتحت إدارة د. هِلسل، كانوا يجرون الأبحاث سعياً إلى اكتشاف لقاحٍ مضادٍ لمرضٍ مُعدٍ شُخّص عند البشر. لم يكن القرارُ بالأمرِ السّهل، لكنّ بالنّسبة إلى غرينفيلد، لم يكُن يُطرَحُ بالأصل: بين حياة شمبانزي وإمكان إنقاذ بشرٍ، الاختيارُ بديهي. ولم يكن ثمّة من بديلٍ لهذه التّجارب.

الأمر الذي يمكن أن يبدو غريباً، هو أنّ غرينفيلد، العجوز غرينفيلد، سنواتٍ بعد ذلك، أي وقد صار متقاعداً، ويَعدُّ من السّنين سبعين، كانت تأتيه الكوابيس بانتظام، فيستفيق منها مضطرباً يتفصّد عرقاً. الصّورة التي كانت تعذّبه لم تكن لها علاقةٌ بآخر نشاطٍ زاوله، أي النّشاطَ المتمثّل في شدّ الحزام حولَ المحكومين بالإعدام على الكرسيّ الكهربائيّ. لا شيء ممّا فعله في إطار عمله ذاك كان يبدو له جديراً باللّوم -لا شيء خلّف في نفسه ذكرى يشقّ عليه محوها. كوابيسُه كانت تتغذّى من مصدرٍ آخر. ما كان ينبثق في ذهنه، في الكوابيس، هو الجُهد البدنيّ الذي كان يبذُلُه، وضربٌ من التقزّز العضويّ الذي كان ينتابه- حين يكون عليه جرّ الشمبانزي من ذراعه وربطه إلى طاولة العمليات، ثمّ بسط طرفيه السفليّين، كلَّ البسط، ذانك الطّرفان اللّذان كانا يميلان إلى الانثناء حتّى حين يكون الشمبانزي قد فارق الحياة. وكان ذاك، ذاك الجُهد المبذول إزاء جسد شمبانزي ميّت، جهد بسط ما كان بطبعه لا يريد، حتّى حين تنعدم فيه الحياةُ، إلا أن ينثنيَ. ذاك الجُهد البدنيّ والعضلي هو ما كان قد خلّف لدى غرينفيلد إحساساً بالغثيان لم يستطع التّخلّص منه في شيخوخته، حتّى في حال النّوم.

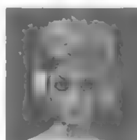
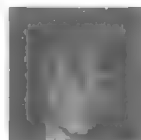
أمّا عن د. هِلسل، بالمقابل، فلم يكنِ غرينفيلد يحفظ إلا ذكريات طيبة.

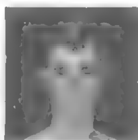











هِلسل والمستودع

إلى جانب نشاطه الرّئيس بالمختبر، كانت للدكتور هِلسل هوايةٌ بليدة: جمع الصراصير وتخزينُها.

كان الأمر يتعلّقُ في حالته هذه بهوَس جامعٍ، وليس بهوس باحثٍ (مثلما هو الشّأنُ بالنّسبة إلى قِردَة الشمبانزي).

مشروع بلا فائدة تذكرُ، لكنّه مشروع واقعيٌّ: كان هِلسل قد وضع لنفسه هدفاً، تجميعَ أكبر كميّة ممكنة من الصّراصير في مستودع مساحته اثنان وتسعون متراً مربّعاً، وعُلوُّه ثلاثة أمتارٍ وخمسة عشر سنتمتراً. وكانت مجموعته المُريبة تخضع لقاعدةٍ جوهرية. إذ لا تدخُل ضمنها إلا الصّراصيرُ الحيّة. فبعد أبحاثٍ معمّقة، توصّل الدكتور هِلسل إلى إقامة مقرّ يوفّرُ الشّروط المُثلى لتكاثر الصّراصير وعيشها أطول زمنٍ ممكن.

مهمّةُ الدكتور هِلسل الثانية، والتي كان يفوّضُها لمساعدين، كانت تتمثّل في جمع الصّراصير التي يضمّنُها مجموعتَه، بإدخالها إلى المستودع.

ولمواجهة الصّعوبة الأكبر -فرز الصّراصير وإحصائها- تصرّف هِلسل مثل رجل علم: لجأ إلى التكنولوجيا لخلق

ميكانيزمات قادرة على تحديد مواقع الصراصير بدقّة (واحداً واحداً تقريباً). أجهزة استشعار موزّعة على مِساحات المستودع جميعها -الأرضية، الجدران، السّقف- قادرة على أن ترصد أدنى نشاطٍ يقوم به صرصور، وكان ذلك مبعث فخر هِلسل. كانت أجهزة الاستشعار تلك تلتقط نبضات قلب كلّ حشرة -كلّ شيء يتوقّف على هذا التّفصيل. كان بوسعها أن تتحرّك أو تظلّ ساكنةً، لا أهميّة لذلك. إنّ صرصوراً حيّاً، سواء في حالة توقّف أو حالة حركة، له قلبٌ شغّالٌ، وكان ذلك ما تلتقطه أجهزة الاستشعار. كانت الأجهزة تنجز المطلوب منها، مثلما كان يقول هِلسل. لم تكن تضيع وقتها في التّفاهات- حركات الأرجل، وقرون الاستشعار، أو حركات الصرصور المجاور. كانت أجهزة الاستشعار تحدّد مباشرةً ما يفرّق جسماً حياً عن جسم ميّت.

كان الدكتور هِلسل يعرف أنّ الحركة وحدها ليست معياراً جيّداً؛ فأحياناً كانت الصّراصير تدفع جثّةً من تلك الجثث، إن جاز التّعبير، فكانت الجثّة تغوص وسط تكتّل، لدرجة أنّ من يلاحظها بالعين المجرّدة، أو بوساطة مكبرة آليّة، قد يحسب أنّ ما يتقدّم بتلك الطّريقة، يحوز الطاقةَ نفسَها. ببراعةٍ مذهلة كان الموتى يُنقلون، يدفعهُم الأحياء، حتّى إنّ العين تخطئ الأساسيَّ: ما يبدو حياً ويتحرّك، هو في الواقع ميت.

أمّا أجهزة الاستشعار، بالمقابل، فلم تكن تخطئ وكانت تبلّغ بكلّ قلب من تلك القلوب الضئيلة التي ما تزال تعمل. الرقمُ الذي يظهر على شاشة صغيرة، خارج المستودع -شبيهٍ بتلك الأرقام الحمراء التي تظهر على شبابيك أيّ إدارة- كان إذن يتغيّر على الدّوام؛ يتغيّرُ أحياناً للإشارة إلى تغيّراتٍ طفيفة، بعض الصّراصير تموت، وأخرى تولد. وأحياناً للإشارة إلى تغيّرات أوسع مدى: مثلاً، عمليّة جمعٍ وفيرة، ترفعُ العددَ الذي تشير إليه أجهزةُ الاستشعار، ويا لَسعادةَ الجامعِ الغامرة بذلك!

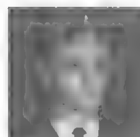
حين لا يكون الدكتور هِلسل في عمله، فإنّه يكون منخرطاً في ملاحظة الشّاشة الصّغيرة، التي تشير إلى تطوّر عدد الصّراصير، يُلاحظها بالقلق الذي يعتري من يجمع كائنات حيّةً وليس أشياء. فالأشياء قد تُسرقُ، أو قد تُحطّمُ بسبب فعل أخرق. لكنّ جمع أشياءَ حيّة يعني الخضوع إلى إمكانية التعرّض لسرقةٍ أقدم وأعرق تاريخاً، السّرقة التي نعرفها تحت لفظ «موت». (بديهيّ أنّ الصّراصير كانت تموت بانتظام، فتظهرُ عقبةٌ متعذّرةُ التّجاوز: يستحيل أن نخلّص المستودع من الحشرات الميتة. على أيّ حال، كانت العشيرة تحلّ مشكلتها بنفسها. الصراصيرُ الحيّة تصعد على الميتة، وهو تصرّفٌ بديهيٌ لغريزة البقاء (كانت تدرك الخطّر الذي يتهدّدها إن بقيت هناك، تحت الجثث، أو حتّى ضمن المساحات الضيقة التي ما تزال فارغةً، وكان المستوى الذي تبلغه الصراصير

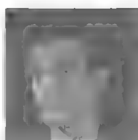
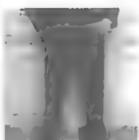
الباقية على قيد الحياة يرتفع، بطيئاً جداً، مليمتراً بعد مليمتر. لم يكن يرتفع إلا سنتمتراً واحداً بعد مضيّ أسابيع عديدة).

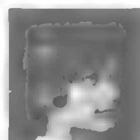
سجّل الدّكتور هِلسل أقصى مستوى بلغته مجموعته، صباح يوم أحدٍ، وكان بصحبته صديقُه هولزبرغ الذي استطاع أن يتّخذه شاهَداً. بعد هذا اليوم، عاد الرّقم إلى الانخفاض انخفاضاً طفيفاً، ليظلّ عند مستوى مستقرّ نسبياً طيلة الأسابيع التّالية.

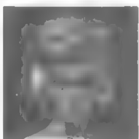
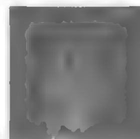
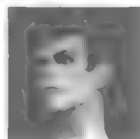
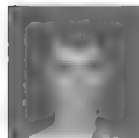
موتُ والد الدكتور هِلسل، الذي وإن كان متوقّعاً إلا أنّه كان صادماً، لجمَ حماستَه إلى الأبد، مثلما سيُلاحظُ أسابيع بعد ذلك. ذات يوم بينما يشاهد مجدّداً الشّاشة التي تشير إلى عدد الكائنات الحيّةً في المستودع، انتاب الدكتور هِلسل لأوّل مرّة الإحساسُ بعبثية ما يقوم به: اقتحم المستودع، وبكامل ثقل ساقيه داس أكبر عدد ممكن من الحشرات. وما كاد يمرّ شهران على وفاة والده حتّى كان الدكتور هِلسِل قد عطّلَ وأزالَ أجهزة الاستشعار وأنظمة حماية الصراصير؛ والمستودعُ -الذي كان ربّما في حقبةٍ ما الفضاءُ الذي يأوي أكبر عدد من الكائنات الحيّة على متر مربّع- ما لبث أن صار مليئاً بكتل ميّتة سوداءَ؛ حطامٌ، في المحصّلة، كلّف الدكتور هِلسل غيرَه بتخليص المستودع منه، كي يصير بمقدوره الشّروع في شيء جديد.

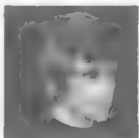










هولزبرغ والمدارُ الطرقيُّ الثاني

صديقُ الدكتور هِلسِل، السيّدُ هولزبرغ، كان معمارياً مفتوناً بالدّائرة، ذاك الشّكل الهندسيّ الذي يحتل مرتبةً صَـدْراً في جميع الميثولوجيات، وكان قد صمّم على امتداد مساره المهنيّ عشرات المدارات الطرقية. افتتانه ذاكَ، قادهُ ذات مرّةٍ حدَّ تحريفِ خطّ التصميم، ووضع مدارٍ، إن جازَ التعبيرُ، مربع. هذه الأرضية الدّعامة، التي كانت الإشاراتُ المرورية تفرض الالتفاف حولها -وإنّه لتعبيرٌ غير ملائم- لم تكن إلا دعابةً من المهندس، فخاً يكاد يكون صبيانياً، لأنه، بسبب تأشيرٍ مروريّ واضحٍ مستفيض (ينبغي الالتفافُ دائرياً حول هذا المربّع الموضوع وسط الطّريق)، فإنّ السيارات كانت تصطدم بحواف تلك الدّعامة الأرضية، فتخرج من الاصطدام بإطارات مثقوبة أو واقيات منزوعة، ... إلخ.

بعد مدّة من الزّمن صار سائقو السّيارات العارفون بهذا الخطر الهندسيّ، يدورون حول المربّع بأبعد مسافةٍ ممكنةٍ عن حوافّه، راسمين بذلك مساراً دائرياً حول مدارٍ وهميّ. وعمليّة السّيرِ تلك حول مدارٍ -لا وجود له فعلاً- كانت تسمح للسائقين، بحسب هولزبرغ، بأن يدركوا إدراكاً دقيقاً أهميّة الدّائرة. بالنّسبة إلى هولزبرغ، كان بديهياً أنّ السّائقين لا يرسمون الدّائرة إلا لحظة يكونون مكرهين على الالتفاف حول المربّع الذي هيّأه.

مع المدارات العادية، لم يكونوا يرسمون بأيديهم، بحسب تعبير هولزبرغ، وإنّما كانوا يكتفون بالاستنساخ؛ شأنهم شأن شخصٍ مطيعٍ يتصرّف من دون أن يعيَ حقاً ما يفعله.

كان لدى هولزبرغ خصيصةٌ أخرى، هي على الأرجح متعلّقةٌ بالأولى: عندما كان يذهب إلى السينما، ما إن كان الفيلم يبدأ كان يغمض عينيه. لم يكن ينام؛ لا بل بالعكس: تركيزه كان يتضاعف؛ بعينين مغمضتين، حتّى داخل قاعة مظلمة، فإنّه يكون مكشوفاً أكثرَ، لذا كان عليه أن يشغّل كلّ آليّاته الدّفاعية والإدراكية. كانت تلك إذن هي الطّريقة التي يرى بها هولزبرغ الأفلام، بقدر ما نستطيع استعمال كلمة «رأى». كان ينتهج تأويلاً للأصوات، تأويلاً متحمّساً، تأويلاً يضيفُ، ويقتطع، ويختزل، ويزيدُ؛ بالمحصّلة: تأويلاً فاعلاً. ذهنُه ومخيّلته كانا يضيفان صوراً إلى ما يسمعه، مثلما قد يفعل أعمى؛ غير أنّ هولزبرغ لم يكن أعمى، وهنا يكمن الاختلاف كلّه.

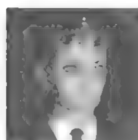
فقط في قاعات السينما كان يمارس هذا التمرين، وكان يمارسه لأنّه يعرف نفسه محمياً -فالآخرون لا يستطيعون أن يروا أنّه يغمض عينيه. كانت تلك لعبة قوّة وضعف، يقبل هولزبرغ أن يلعب فيها، بين الفينة والأخرى، دور الأضعف. حالة التوتّر التي يشاهد بها كلّ فيلم بعينين مغمضتين، محاولاً، كأنّما في لعبةِ

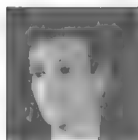
تركيبٍ، أن يجد القطعة البصرية التي تناسبُ القطعة الصوتية التي يسمعها في كلّ لحظة، كانت تتطلّبُ منه مجهوداً بدنياً معتبراً. وهكذا كان هولزبرغ يغادر السينما مستنفدَ القوى، كأنّما لا يخرج من قاعة مظلمة تُسمع وترى فيها أشياءُ، وإنّما من قاعة مظلمة ينكّلُ فيها به أحدهم.

وشأنه شأن السّائقين الذين كانوا، بمجهودهم الشّخصيّ، يرسمون دائرة حول مدارٍ مربّع، كان هولزبرغ يحسّ بأنّه، إذ يسمع الفيلم بعينين مغمضتين، كان يصنع بنفسه الصورَ (على شاكلة حِرَفيٍّ اللا مرئيّ).

هولزبرغ، مثلما رأينا، كان ينقاد عن طيب خاطر إلى بعض أشكال التجارب الحسيّة غير الاعتيادية؛ التجربةُ التي أجراها ذات يومٍ مع صديقه هورنيك، وهو بيطريّ، مثالٌ جيدٌ.

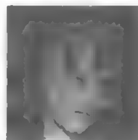


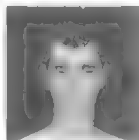


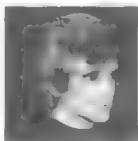














هورنيك والمتاهة

أثناء رحلةٍ، في متاهةٍ حُوّلت إلى مكان ترفيه سياحيّ، طلب هورنيك من المرشد السياحيّ ألاّ يرافقهما. انطلق هو وصديقه هولزبرغ بمفردهما؛ وكما في الحكاية، أخذا معهما كيس خبز وصارا ينثران الفتات في طريقهما حتّى يتمكّنان فيما بعد من العودة إلى نقطة انطلاقهما. انبرى هولزبرغ للتّحدي، وقبلَ المرشد، بعدما أخذ مالاً أكثر كي لا يقودهما، أن يظلّ عن مدخلِ المتاهة، ويترك السّائحَين يتوغّلان بمفردهما، خارقاً بفعله كلّ تعليمات السّلامة.

انطلق هولزبرغ وهورنيك، كطفلين يمرحان بالخطر الذي يعرّضان نفسيهما إليه. كانت المتاهة، الواسعة جداً، تمتدّ على مساحة تفوق عشرين كيلومترا مربّعاً. كانت الأسوارُ تتتالى، ولا شيء يميّزُ ممراً أوّلَ عن ممرٍ ثانٍ. وترابُ الأرض كان هو هوَ في كلّ مكانٍ، مثله مثل السّماء فوقَ رأسيهما، ومن كلّ جانبٍ حولهما الجدرانُ الخالية من كلّ تعبير. طبعاً، إن تاها، فسيكونَ بمقدورهما دائماً أن يصيحا.

كان هولزبرغ وهورنيك يتقدّمان بإيقاع منتظم، وكلّما خطوَا ثماني خطواتٍ، تركا فُتاتة خبز من كيسهما. كان يستديران يمنةً،

ويسرةً، ومن حين إلى آخر يلقيان نظرة خلف ظهريهما، فيلمحان، نصفَ مبتهجَين ونصف خائفين، فتات الخبز المنثور على الطريق.

كان في المتاهة كذلك طفلان أو ثلاثة، تتناهى صيحاتهم الصغيرة إلى مسمعَي الرّجلين.

كان يحسبان أنّ أولئك الأطفال هم أطفال أسرة سائحة دخلت المتاهة بمعيّة مرشد. لكنّ الواقع أنّهم لم يكونوا أطفالَ سيّاحٍ. كانوا يعيشون في الأرجاء. هم أطفالٌ فقراءُ يطرقون الأماكنَ السياحيّة للتسوّل؛ وكانوا يعرفون المتاهة قدْرَ ما يعرفُها المرشدون، لذلك، لم يكن وارداً أن يتيهوا فيها.

هؤلاء الأطفال، الذين كانوا يلعبون ويتسوّلون غير بعيدٍ، وجدوا الآثار التي خلّفها هولزبرغ وهورنيك. جمعوا كلّ فتات الخبز، ونفضوا عنها التّرابَ، وأكلوها. ما كان يمثّل بالنّسبة إلى هولزبرغ وهورنيك علامات حاسمة، كان بالنّسبة إليهم هم طعاماً (علامات/ طعام، تبادلية غريبة).

وعليه، حين أراد الرّجلان الرّجوع على عقبيهما، كان يكفيهما التقدّم بضعة أمتار لكي يدركا أنّ أوتادهما الهادية قد اختفت. اعترى هورنيك اضطراب خفيفٌ، وهولزبرغ اضطرابٌ أخفّ؛ وبعد ساعةٍ من المحاولات، بين تقدّمٍ ونكوص، استسلما،

متحمّلين وصمة العار التي لحقتهما، وسط المتاهة، وشرعا في الصّراخ.

أتاهما العونُ في هيئة رجلٍ غريب، مفرط السمنة، يعاني مشاقَّ ملحوظةً في التحرّك، شخصٌ يدعى هوروفيتز -سائحٌ هو أيضاً، وكان قد دخل إلى المتاهة وفق النظام المعمول به، أي في إثر مرشد- قدّمَ نفسه إليهما في آخر مكانٍ يمكن أن نتصوّر حدوث تعارفٍ فيه: متاهة (في أيّ موضعٍ بالضّبط؟ كيف السّبيل إلى تحديده؟). هوروفيتز، متبوعاً، في تبادلٍ خاطفٍ لمواقعهما، بمرشده، مدَّ يده إلى هولزبرغ أوّلاً، ثمّ إلى هورنيك. رجلٌ مصحوبٌ بمرشدٍ، ينبري لرجلين تائهَين تماماً، ذلكم كان المشهدَ.

- اسمي هوروفيتز، أنا أركيولوجيّ.

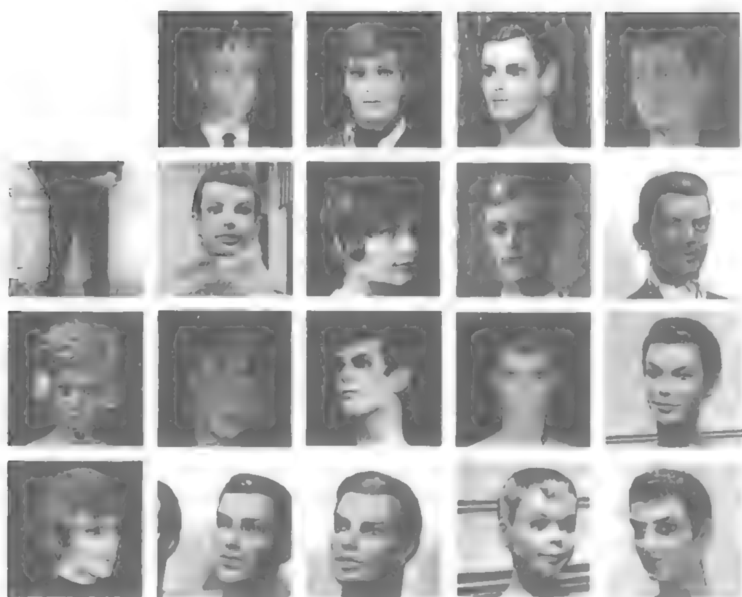
وبعدما قال ذلك، تنفّس بعمق. كان الكلام يُتعِبه.

تابع هوروفيتز:

- يبدو أنّ المساكين قد ابتلعوا علاماتكم.

ثمّ قهقه ضاحكاً، بطريقة غير لائقة.





هوروفيتز والخلاص

الموكب الغريب الذي استطاع أن يخرج من المتاهة: المرشدُ وهوروفيتز، الرّجلُ السّمين الذي كان يحمل دهونَه بمجهود معتبر، وخلفهما، هولزبرغ وهورنيك، سائحَين يشعران بالعار.

لقد ألفيا نفسيهما مجبرين على الصّراخ، على طلب العون، ثمّ اتّباع الرّجل ذي الهيئة المنفّرة، الذي بالكاد كان يستطيع المشي (ويشتكي بمرارةٍ من غياب صديقٍ، أندكتور، كان ينتظره بالفندق: «إنّه يسير أسرع منّي» قال هوروفيتز).

كانت وضعيةُ الرّجلين محرجةً. بسبب بطء هوروفيتز والمراتِ العديدة التي اضطرّ فيها إلى التوقّف، متعباً ومتقطّع الأنفاس، كلّفهما الخروجُ من المتاهة ساعاتٍ. يومها حدثت مفارقةٌ: لقد قضيا في التّيه مدّةً زمنيّةً أقلّ من تلك التي تطلّبها منهما الخروج من المتاهة، وإن كان خروجهما قد تمّ برفقة مرشد. وذلك لأنّ منقذهما كان رجلاً مفرطَ البدانة، رجلاً جسده عقبةٌ أمام السير، مهما كانت المسافة وجيزةً. ولأنّ الأدب كان يفرض على الرّجلين أن يتبعا حتّى النّهاية (أو على الأقلّ حتّى مخرج المتاهة) الرّجلَ الذي أنقذهما. بلغ التوتّرُ مداه عند الصّديقين، هولزبرغ وهورنيك، في الأمتار الأخيرة قبل الخروج، حين بلغا الموضع

الذي تصير فيه الطّريقُ بيّنةً؛ الموضع الذي كان بوسعهما فيه أن يتخلّيا عن مرشدِ هوروفيتز، وعلى الخصوص الانتهاء من البطء الأقصى الذي تفرضه عليهما بدانةُ الأركيولوجيّ. لقد تمالكا نفسيهما؛ فكما أسلفنا كان تصرّفهما على نحو مغايرٍ سيكون قلّةَ أدب. وعليه، فإنّ القطعة الأخيرة، التي كان من الممكن أن يقطعاها في ثوانٍ معدودة، كلّفتهما، بسبب التوقّفات المتعاقبة، أكثر من عشر دقائق.

سنواتٍ بعد ذلك، ظلّ هولزبرغ وهورنيك يتذكّران تلك الدّقائق العشر، بوصفها لحظات عانيا منها ببلادة. ذاك أنّ شخصاً تاه -بالضرورة تملّكه الرّعبُ، لثوانٍ معدودة وبشكلٍ لا عقلاني، من أن يظلّ تائهاً إلى الأبد- ثمّ ها هو يلْمح أخيراً المَخرج، ولكن لا يستطيع أن يتخطّاه بالسّرعة التي يريدها. لا بل على النّقيض من ذلك، يسير أبطأ من أيّ وقتٍ مضى. كانت تلك الدّقائق بالنّسبة إلى الرّجلين بمثابة تعذيب: جسداهما اللّذان كانا يرغبان في الرّكض، فُرض عليهما أن يسيرا بإيقاعِ رجلٍ يزنُ ما يقارب مئة وخمسين كيلوغراماً، رجلٍ لا يُستلطَفُ، رجلٍ غريب، ولا يعرفانه لا من قريبٍ ولا من بعيد.





أندكتور والفتى

إنّ الأكثر إدهاشاً من بين كلّ الأمور التي حصلت لهوروفيتز، بوصفه أركيولوجياً: هي كسبُه إمكانية النّبش في الحاضر (النّبش، بمعنى ما، في الرّاهن).

يصف هوروفيتز ما نحسّ به حين ننقذ من تحت الأرض شيئاً قديماً -إنّها حركةٌ معكوسةٌ لتلك التي يخضع لها جسمٌ يغرق. حين نمارس الأركيولوجيا، فإنّنا ننقذ جسماً كان مغموراً تحت الأرض (جسماً نُسيَ لأنّه غير مرئيّ).

أحياناً، (حين يتمكّن من أن ينتشل من الأرض مزهريّةً أو حتّى مجرّد كِسرة من شيءٍ قديم عمرُه قرونٌ)، تتّخذ العملية شكل ولادة: جسمٌ يخرج من جسمٍ أكبر منه، وما إن يصير خارجاً حتّى يبدأ حياةً جديدة.

ذات يوم، أحرز هوروفيتز -مع زملائه الأركيولوجيّين- نجاحاً لافتاً: اكتشفوا، وسط أشياء أحدث زمناً، أحفورةً تحفظ ذكرى حيوانٍ عمره آلافُ السّنين. في الحالات المماثلة، يتعلّقُ الأمر بالإمساك بالتّاريخ لجرِّهِ إلينا، مثلما يمسك المرء جسماً على وشك السقوط في هاوية. إنّ اليدَ القويّة هي ما يُجنِّبُ السّقوطَ أو النسيان: ذاك ما أحسّه هوروفيتز تُجاه الحيوان عندما

أمسك الأحفورة بيده أوّل مرّة.

يتعلّقُ الأمرُ بصنع التّاريخ، لكن ليس بوساطة رموز -صنعه بأشياء ملموسة. أن تكون مؤرّخاً يباشر أحجاماً، أشياء تحتلّ حيّزاً في العالم. ولولا هذا التصرُّف، لكان المؤرّخون يستخدمون كلمات جوفاءَ- كلمات لا شيءَ بداخلها. إنّ الأشياء التي ينتشلُها الأركيولوجيّون تشغلُ دواخلَ كلماتِ المؤرّخين. لم يكن هوروفيتز يعرف كيف يكتب، لكنّه كان يعرف أين يحفر.

حجمُ جسمه الهائلُ، مئة وخمسون كيلوغراماً، كان يمنعه من القيام بأدنى مجهودٍ بدنيّ، لكنّه يفعل ما يفعله الرّجالُ المهمّون، وما يزالون يفعلونَه: كان يشير بإصبعه. سبّابةُ اليد اليمنى، تلك الإصبع القويّة، ذات الدّور الحاسم في العالم، الإصبع التي ما تزال تنتظرُ أن يُكتبَ تاريخُها، تلك الإصبع مبسوطةً هي ما يقول: «هنا».

كانت إصبعه تعيّنُ الماضي، مثل عصا عرّافٍ تهتزّ إذ تقتربُ من مصدر ماء؛ سبّابةُ يده اليمنى تأخذ في الاهتزاز -أقلّه ذاكَ ما كان يتخيّلُه- حين يحسّ وجودَ شيءٍ تاريخيّ في الأرجاء، شيءٍ قديم، حتّى وإن كان مدفوناً في أعماق الأرض.

بالطّبع حدث مرّاتٍ عديدة أن أشارت إصبعه إلى موضعٍ

ما، ثمّ بعد جهودٍ مضنيّة اضطلع بها رجالٌ غيره، رجالٌ حفروا وحفروا طويلاً، توصّلوا إلى أنّ ليس ثمّة إلاّ التّرابُ والمزيدُ من التّراب. (الشّيء المعثور عليه -أي التّرابُ- هو أيضاً قديمٌ، بل موغلٌ في القدم، لكنّه بلا قيمةٍ تُذكرُ، ما دام لا شيء فيه يميّزُه عمّا يوجد في كلّ مكانٍ بالجوار، لا شيء فيه يتّخذُ شكلاً مفيداً، إذا ما استثنينا فائدته الكبرى كدعامةٍ للأجسام التي تضع أقدامها عليه).

نعم، كان هوروفيتز وإصبعه كثيراً ما يخطئان، لكن، كلّما أحسن التّصويبَ إلا وعوّض بسهولةٍ مئة فشلٍ، لا بل ألفَ فشلٍ. أن تصوّبَ سديداً، يتجاوّزُ مجرّدَ إصابة هدفٍ موجودٍ، إنّه يعنيَ اكتشافَ كنز. وهذا ما يفسّرُ طرَبَ هوروفيتز وزملائه كلّما أحسنَت إصبعه التّصويبَ.

لائحةُ مكتشفات هوروفيتز وفريقه، على امتداد سنوات من العمل، كانت مذهلةً. كانوا قد شاركوا في أعمال التنقيب بمعبد دجييوتي، وأبيدوس، وأيضاً في أعمال البحث التي جرت شمال الدّلتا، في إدفو، ... إلخ.

لكن، ذات يومٍ، اكتشف هوروفيتز وفريقه لقيةً في مكانٍ غير متوقّع. كانوا يحفروّن وينتشلون، كما أسلفنا، من الحاضر وليس الماضَي.

كانوا في شمال إفريقيا، والإصبَعُ والخرائطُ ودراسةٌ قامَ بها هوروفيتز، كلّها مجتمعةً كانت تشير إلى موضعٍ معيّنٍ، مساحةِ أمتارٍ مربّعة يمكن أن تواريَ شيئاً ثميناً. انطلقوا ينقّبونَ. سحبوا كميّةً كبيرةً من التّراب من مساحةٍ محيطُها سبعة أمتارٍ أو ثمانية. كان ثمّة شيءٌ تحت، لا ريب في ذلك، وكلّما أزيح كيلوغرامٌ من التّراب إلا وتأكّدَ وجوده أكثرَ.

بدأ اللّغز في عمق عشرين متراً تحت مستوى الأرض. ثمّة شيء، أجل، لكنّه شيء حيّ. شيء يتحرّك. فكّروا بدايةٍ في حيواناتٍ. المناجذُ[3] تعيش تحت الأرض، هذا ممّا لا شكّ فيه، لكن تحت الأرض بهذا العمق؟ أيّ حيوانٍ آخر يمكنه أن يعيش في أعماق مماثلة؟ أخذ اللّغز يتعاظمُ. لم يكن لا أحفورة ولا شيئاً. كان هناك على الأقلّ كيانٌ حيٌّ، وقد اعترى رجالَ هوروفيتز نوعٌ من القلق.

ما يخرجونَه من الأرض، صار يبدو لهم شيئاً رهيباً.

بعد أمتارٍ وأمتارٍ عُمقاً، تحركَ كيانٌ. كانوا يخرجون من الأرض الحاضرَ؛ والحالُ أنّ الحاضرَ أشدُّ رعباً من الماضي. (الماضي لا يقتل، إذا ما ضربنا صفحاً عن تلك الفخاخ التي ينصبها القدامى على أشياء، سمٌّ مثلاً يهيّأ ليقتُل من يمسّ تلك الأشياء. على أنّ

(3) جمع خلد.

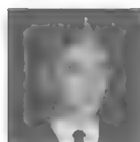
الخطر كان هنا أكبر: ثمّة شيء حيّ تحت الأرض، وما هو حيّ يكون نزوعه إلى القتل أيسَر). ثمّ بغتةً سمعوا صوت تصدّع، كأنّما معاونو هوروفيتز كسروا قشرة بيضة من رأسِها. لقد وصلوا إلى حدٍ، وانهار التّراب فيما يبدو أنّه نفقٌ، وأمام عظيم دهشةِ هوروفيتز وفريقه، كان الشّيء هناك. وفي الواقع، لم يكن فَي الأمر شكّ، لم يكن الشّيء حيواناً.

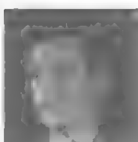
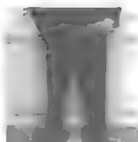
أصدر هوروفيتز أوامره فوراً بإعادة إغلاق الحفرة. فنشطت المعاول والسّواعد، في المنحى المعاكس، لكن بسرعةٍ أكبر.

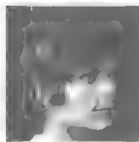
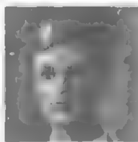
وحدَه هوروفيتز انبرى للكلام، وقال إنّه يأمرُ بالصّمت المطلق عمّا وقع. أنهى فريق هوروفيتز العمل، وقام باللازم كي لا يبقى ثمّة ما يوحي بأنّه قد حدث أدنى تدخّل في ذاك المكان، كأنّما يتعلّق الأمر ببذل آخر جهدٍ، في محاولة إخفاء رسالةٍ سريّة.

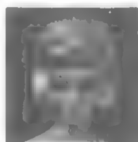
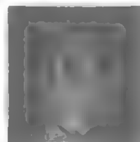
لنُضِف أنّ أندكتور، وهو أحد أعضاء فريق هوروفيتز الأركيولوجي، فضلاً عن الشّيء المقلق الذي رآه أثناء محاولة التنقيب المذكورة، كان قد رأى أيضاً، سنواتٍ بعد ذلك، فتىً، في السّادسة عشرة من عمره ربّما، ليس أكثر، فتىً يدعى كاشين؛ رآه منهمكاً في كتابة «لا» كبيرة في ملصقٍ على حائطٍ، ملصق يعلنُ عن مظاهرة تطالبُ بالإفراج الفوريّ عن شخصٍ، لا يتذكّر اسمَه.

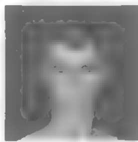


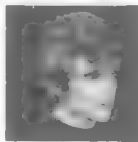
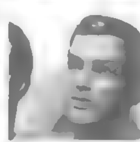


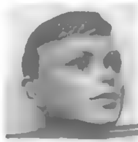
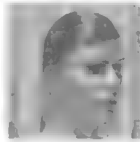







كاشين والـ «لا»

كاشين، الفتى ذو الستة عشر عاماً، قرّر في الواقع ما يأتي: نشر الـ «لا» حيثما مرّ. فقط هذه الكلمة، دونما أيّ تعليق: «لا».

على ملصقات تعلن العرض الأوّل لمسرحيةٍ، يكتب كاشين، من دون أن يراه أحد، «لا».

على الجدار الذي يفصل بنايتَين، يكتب كاشين «لا».

على نشراتٍ إعلانية تمتدح مزايا وأسعار الموادّ الغذائية والصحيّة، يكتب كاشين «لا».

على صناديق البريد بعمارة سكنية، يكتب كاشين «لا».

على طاولةٍ وكرسيّين، بمصلحة الضرائب، من دون أن يراه أحد، يكتب كاشين «لا».

على سروالٍ بمتجر ملابس، سروالٍ سيُعرض بعد ذلك في واجهة المحلّ من دون أن يلحظَ أحد شيئاً، على الجهة العليا من ذاك السّروال، يكتب كاشين «لا».

على مجلّد القانون الضّخم الذي نسيه طالبُ حقوقٍ على طاولة مقهى، وعلى أكبر قدرٍ ممكن من الصّفحات، يكتب كاشين «لا».

على العديد من الكتب بالمكتبة البلدية، أحياناً على ظهرها، وأحياناً أخرى بداخلها، على صفحاتٍ، يكتب كاشين «لا».

يكتب «لا» على ظهر معجم مرادفات، «لا» على ظهر كتاب مغامرات، «لا» على غلاف كراسة نحو.

يكتب «لا» على السّبورة السّوداء التي ما تزال تحمل آثار متوالية حسابية رياضية.

على العديد من الشّاشات المعروضة في واجهة متجر، يكتب كاشين «لا».

على آلةٍ هائلة تطحن الخُردة، يكتب كاشين «لا».

على قاعدةٍ رافعةٍ، يكتب كاشين «لا».

على سيارة شرطةٍ، ليلاً، مرتجفاً، يتمكّنُ كاشين من كتابة «لا». ثلاثُ «لا» موزّعةً على محيط السيّارة.

على كلابٍ ضالة، كان يلصق ملصقاتٍ، بعضها كبير الحجم، يلصقها بإحكام على فرو مؤخّرتها، إلى درجة أنّ الكلاب تكاد تجنُّ وهي تحاول التخلّص بالعضّ من ذاك الملصق الكبير الذي كُتبت عليه كلمة «لا».

كان كاشين يكتب «لا» على جذوع الأشجار، على الأوراق، على الأرصفة، على كُرات قدم، على دفاتر مدرسية: «لا»، «لا»، «لا».

على بطاقات بريدية تحمل صور مناظر طبيعية فردوسية: «لا».
على صفحات الجرائد الأولى التي تحمل الأخبار المذهلة، «لا».
على كاتالوغات العروض الفنيّة أو كاتالوغات الملابس، «لا».

كان عمر كاشين آنذاك ست عشرة سنةً، ولا أحد استطاع أن يعرف لما فعل ذلك مدّةً طويلة من الزمن؛ فعل ذلك أسابيع وأسابيع، من دون أن يكشف أمره أحد.

وفي بعض الأماكن كان لتلك الـ «لا» آثارٌ ملموسة، أحياناً غريبة ومذهلة.

بعضها كان في موقعه تماماً. مثلا، بسبب «لا» على ملصق إعلاني، قدّرت الشّركةُ أنّ هذه العملية الدعائية قد لا تكون هي الأكثر ملاءمة. وبسبب هذه الـ «لا»، استغنت الشّركة عن خدمات المُعلِنِ الذي اشتغلت معه منذ سنواتٍ طويلة.

مثالٌ آخر: المشرّعُ الذي أُعلمَ بأنّ أحدهم قد كتب «لا» على إحدى صفحات مدوّنة القانون. ولندقّق أنّ كاشين، على عادته دائماً، كان قد كتب «لا» رهنَ الصّدفة تماماً، من دون حتّى أن يقرأ القانون محلَّ حديثنا؛ بيد أنّ المشرّعَ رأى تلك الـ «لا»، فأقرّ بأنّها مسوَّغةٌ: ذاك القانون يفتقر إلى الصّرامة، إلى الدّقة، إلى الوضوح، كان قانوناً متخلّفاً قياساً إلى ما عرفه العالم من تطوّر. قرّر المشرّعُ أن يغيّرَ القانون.

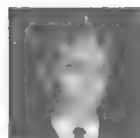
أو هذا المثالُ الثالث: سياسيٌّ وجد بين يديه بطاقةً بريدية بصورة منظرٍ جميلٍ تعلوه كلمة «لا». لم تكن البطاقة تحملُ أيّ عبارة، لكنّها مع ذلك كانت كذبةً؛ وربّما تحديداً، لأنّها كانت بصريّةً، كانت كذبةً أخطرَ. فأيّما شخص ذهب إلى عين المكان، إلى ذلك الموضع بالضّبط، فسيرى فيه كمّاً من النفايات، طبيعةً متدهورة إلى حدٍ بعيد، وكأنّما بين الصّورة على البطاقة وبين الموقع الفعليّ ثمّة الفرق نفسه بين شابٌ قويّ البنية وعجوزٍ خرِف، يعيش آخر أيامه وبالكاد يستطيع المشي. أصدر السياسيُّ أوامره بتنظيف الموقع، والقيام بأشغال تجديد. فكّرَ أنّه إذ سيقوم بذلك ستكفّ تلك الـ «لا» عن إزعاجه والتحرّش به.

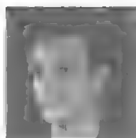
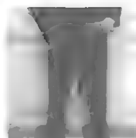
خلاصة القول؛ الـ «لا» العديدة التي كان كاشين، المراهق كاشين، ينثرها على امتداد المدينة وعلى مختلف الوثائق، أحدثت العديد من الاضطرابات.

شهدت المدينة تغيّراتٍ سياسية، وتشريعية، واجتماعية («لا» على مجموعةِ معطياتٍ إحصائية منشورة في إحدى الإدارات، أدّت إلى شجارٍ عنيف انتهى باستقالة رئيس المصلحة). لا بل حدث طلاقٌ: حين رأت امرأةٌ على ظهر زوجها، المدعو كِسلر، «لا» هائلة، أوّلته باعتباره رسالةً واضحة بيّنة.

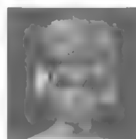
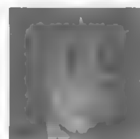
في المحصّلة، ما كادت تنقضي أربعة أشهر، وبسبب سلسلة من «لا» عشوائية، حتّى تغيّرت مدينة المراهق كاشين تغيّراً جذرياً.

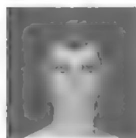


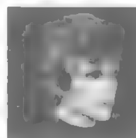




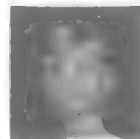












كِسلر والسّفينة

كِسلر، الرّجلُ الذي طلبت زوجته الطّلاقَ بسبب التأويلِ الذي أوّلت إليه «لا» المكتوبة على ظهره، إذ وجد نفسه مطروداً من البيت بعد انفصالهما، قرّرَ أن يعود إلى الجزيرة الصّغيرة التي ينحدر منها والداه المتوفّيان.

عن والديه، كان كِسلر قد ورث منزلاً متواضعاً بتلك الجزيرة الصغيرة التي تأوي أقلّ من مئتي ساكن. أقرب المدن تبعدُ عن الجزيرة ألفَ كيلومتر بالسّفينة.

قضى كِسلر هناك بضع سنواتٍ هانئة، لكن أتى وقتٌ تعقّدت فيه كلّ الأمور سريعاً. العديد من سكّان القرية بدؤوا يفقدون صوابهم، يصيرون مجانين. بسبب العزلة، أو ربّما لسبب آخر (الماء، الطّعام؟). حتّى إنّه بعد مضيٍّ سنواتٍ معدودة لم يعد من بين سكّان المدينة المِئتين سوى ما يقارب العشرين ممّن يبدو عليهم الاتّزان.

ثمّ ما لبثت الأمور أن زادت خطورة: واصل عدد المجانين الارتفاع، وأفعالُ بعضهم بدأت تؤدّي إلى نتائج وخيمة.

لذا، ذات مساء، قرّر الرّجال السّبعة الذين كانوا ما يزالون حاضري الذهن -والخوف باسطٌ سطوتَه، إذ كان بعض الحمقى

قد تسلّحوا وانبروا مهدّدين، ... إلخ.- أن يهربوا من المكان بالسّفينة، الوسيلة الوحيدة التي ما تزال في متناولهم.

صباحاً، أنار ضوءُ الشّمس السّفينةَ المتوسّطة الحجم، التي رُبط إليها قاربٌ صغير. على متن السّفينة كان يوجد الرّجال السّبعة الذين لم تضطرب عقولهم. كانت تلك سفينة الرّجال العقلاء الذين يفرّون من قرية الحمقى. ليبقَ الآخرون هناك؛ كان الرّجالُ السّبعة على يقين من أنّ أولئك المجانين لن يتأخّروا في قتل بعضهم بعضاً. ولن ينجوَ منهم أحد.

هامت سّفينة العقل -كذا سمّاها كِسلر- أسابيع على غير هدىً، إذ لا أحد من ركّابها كان بحّاراً. طيلة أسابيعَ لم يلمحوا يابسةً، وأخذت مؤونة الطعام تنفد منهم. لكن لم يكن ذلك هو المشكل الأخطر.

في لحظةٍ ما، بدأ كِسلر يعاينُ في الرّجال السّتة الآخرين أماراتٍ مقلقة، أمارات جنون. دنا كِسلر من الرّجلين اللذين، بالإضافة إليه، كانا يبدوان يقاومان هذه الوضعية القصوى. الأربعة الآخرون كان يبدو أنّهم يفقدون رشدهم شيئاً فشيئاً، لا بل إنّ أحدهم صار يفقد رشده بسرعةٍ مهولة. صار التّوازنُ على متن السّفينة التي تقلّ الرّجال السّبعة على المحكّ.

توصّلوا بسهولةٍ إلى اتّفاق، وانتقلوا سريعاً إلى التّنفيذ قبل أن

يتمكّن الآخرون من إصدار أيّ فعل. ذات ليلةٍ، فكّ كِسلر ورفيقيه اللذين ما يزالان يتمتّعان بعقل راجحٍ، القاربَ وفرّا من رفقة الأربعة الآخرين.

لقد صاروا الآن ثلاثة رجالٍ في قارب، ثلاثة رجالٍ أسوياء العقل. لقد صار الآن هذا الزورق هو مركبَ العقل، المركب الذي بقيَ بعدما فرّ كِسلر من قريةٍ عنيفةٍ وعدوانية، قرية مجنونة. هو والرّجلان الآخران كانوا على متن قارب المقاومة: كان الزورق الصّغير يحملُ العقل، أروع مكاسب البشريّة. كان يحمل العقلَ كما تُحملُ شعلةٌ مضاءَة.

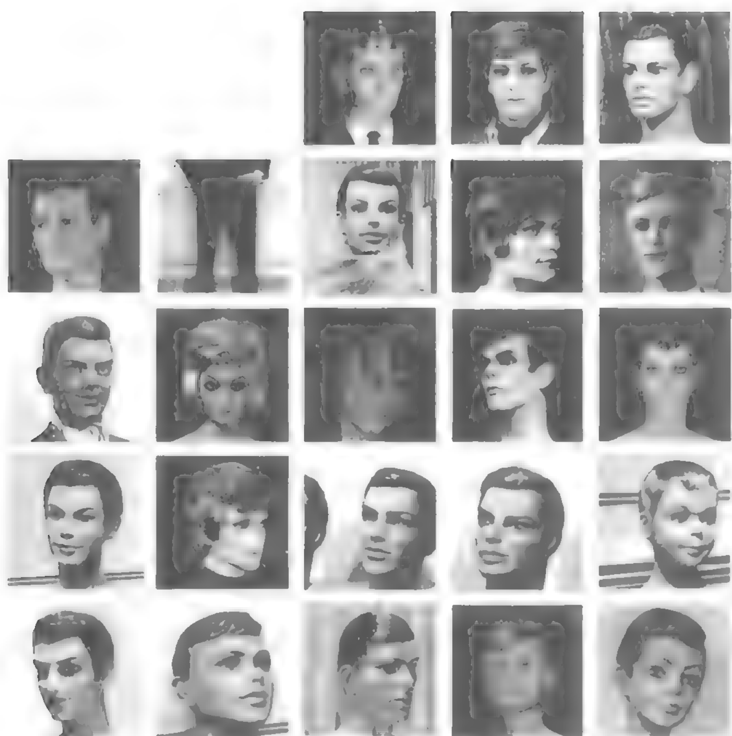
غير أنّه، وبعد أيّام فقط، تدهورت العلاقات بين الرّجال الثلاثة. نقصُ الطّعام والمساحَة كان ثقيل الوطأة، وواحدٌ منهم صار عدوانياً، اضطرب عقَله وانفلتت منه كلماتٌ بدت للآخرين غريبةً؛ رأيا فيها أثراً من لوثةٍ خفيفة، لكنّها خطيرة. تبادل كِسلر ورفيقه، كلاين، نظرةً متواطئة، وكردّة فعلٍ على حركّة مباغتةٍ من الرّجل الثالث، دافعا عن نفسيهما، لكن ما لبثا أن وجدا نفسيهما يشدّان بقوّة خناقَه لدرجة أنّه لم يعد بمقدورهما الوقوف عند تلك النّقطة: فإن هما توقّفا سيكون معهما عدوٌّ على متن القارب؛ وإن هما واصلا، فسيصيران قاتلين. فرض الاختيار نفسَه: الرّجلان اللذان ما يزالان يتمتّعان بالحصافة، آخرُ رجلين يتصفان بالعقل (كذا كانا يريان أنفسهما، أكثر فأكثر)،

اضطرّا إلى قتل الرّجل الثالث، ذاك الذي صار مجنوناً. وذاك المساء، ينبغي أن نقول ذلك من دون أن نبسُط القولَ، قام الرّجلان، بعد أيّامٍ من الجوع، بشيءٍ لم يجرؤا يوماً على تصوّره.

في اليوم الموالي: كِسلر وكلاين. رجلين، عاقلين، رجلين ما يزالان بشرَين، وهو ما يشكّل مبعث فخرٍ لهما. بعد كلّ ما وقع، حافظا على إنسانيّتهما.

أحيانا، على سبيل الدّعابة، ولفحص عقلانيّة ذهنهما وطبيعتّه، كانا يتحدّيان بعضهما تحدّياتٍ صغيرةٍ، تمارين في الاستدلال المنطقيّ أو الرّياضيات النظريّة. كأنّهما طفلان، أو كأبٍ يكلّمُ طفلَه، يقترح كلاين على كِسلر عملية ضرب، ثمّ يسألُ كِسلَر كلاين عن عاصمة هذا البلد أو ذاك. كانا يحاولان تحفيز بعضهما بعضاً فكرياً؛ أن يواصلا تشغيل دماغهما كانَ أمراً لا مندوحة عنه إن هما أرادا أن يحافظا على تلك النّعمة التي إليها يعود الفضل في وجودهما هنا، في هذه الوضعية، على متن هذا القارب، معزولَين عن الجميع، لاتذين بالفرار؛ إذا ما أرادا ألاّ يفقدا الصّواب في نهاية المطاف. إنّه أجمل قاربٍ في العالم، كذلك قال كِسلر، لكن لم يكتب له أن يُكمل جملتَه، إذ بطريقةٍ غير متوقّعةٍ، انقضّ عليه كلاين، وأمسكه من رقبته، ثمّ أخذ يخنقه، ويخنقه، ولم يتوقّف إلا حين أدرك أن كِسلر قد مات، وأنّه هو، كلاين، الآن النّاجي الوحيد على متن قارب العقلاء.





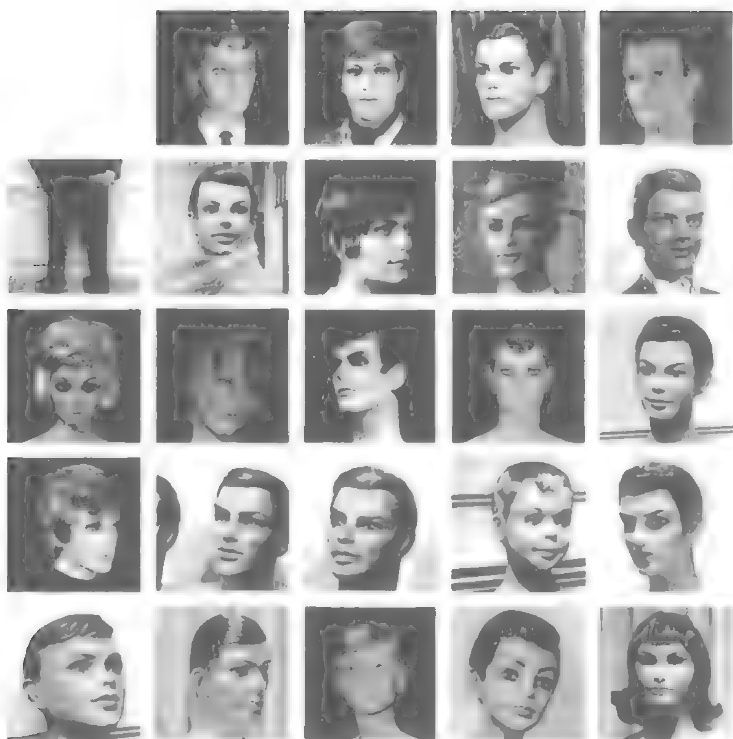
كلاين والجنون

- كان ذاك قارب العقل!

كذلك صاح كلاين في اللّحظة التي وطئت فيها قدمه اليابسة، حيث ساعدته جماعةٌ، يفوق عدد أفرادها عشرين فرداً، على النّزول من مركبه.

استُقبل كلاين خير استقبال. أُطعِمَ، وأُنعش جسمُه، ثمُ أُدخل مصحّةً من طرف الدكتور كوين.





كوِين والفُرجةُ في الغابة

كان الدكتورُ كوين، طبيبُ الأمـراض العقلية، مغرماً بالفُرجات. حين لا يكون منهمكاً بفحص المرضى، فإنّه يتوغّلُ في الغابة أيّاماً، وبفضل حسٍّ توجّهٍ منقطع النظيرِ، كان يتوجّهُ رأساً إلى الفُرجة الصّغيرة التي يبلغ قطرها أقلّ من أربعة أمتار، والتي فيها غرز علم بلاده، الهند. كانت الأرجاء شبه منيعةٍ. وباستثناء هذه الفرجة، لم تكن الأشجارُ تتفاوت فيما بينها إلا بسنتمتراتٍ قليلة؛ وبين الأشجار ذات الأبعاد المعتبرة، كانت عشراتُ الأغصان المتشابكة تشكّل جدراناً طبيعية. وحدَه كوين كان يعرف الطّريق إلى فُرجته؛ لم يكن قد أخبر زوجته بأيّ شيء، ولا أشار إلى الفُرجة في أيّ خريطة.

في الفرجة، كما أسلفنا، لم يكن قد ترك سوى شيء واحدٍ، في مركزها معلّقاً بطرف رمحٍ: علمَ بلاده.

ذات سبتٍ، تفاجأ حين وصل، إذ لاحظ تغييراً، ليس في الفُرجة نفسها وإنّما في مركزها. كان ثمّة بالفعل علمٌ، لكنّه لم يكن علم بلاده.

عرفَ العلمَ. كان علم باكستان.

أزاح العلمَ، ثمّ عاد إلى منزله، وحمل علماً هندياً غرزَه مجدّداً في قلب الفُرجة. وتلك اللّيلة قرّر أن ينام في عين المكان. مسلّحاً.

طيلة الأسبوع الموالي، اشتغل في نفسه نوعٌ من الضيق. ويوم السّبت عاد إلى الفُرجة، ذاك الفضاء الفارغ الذي يقاوم زحفَ الغابة، الفضاء الحضريّ الذي لا يتجاوز قطرُه أربعةَ أمتارٍ.

نظر إلى العلم. لم يكن علمَ الهند. لقد غُيِّرَ مرّةً أخرى. كان علمَ باكستان.

طيلة الأسابيع الموالية، وكأنّما صار الدكتور كوين ضحيّة روحٍ عنيدٍ، أو فقط شخصٍ يتلاعب به، كان علم الهند يُغيُّر باستمرار بعلم باكستان. وكلّ سبت يحمل الدكتور كوين علماً جديداً من أعلام بلاده.

لم يكن ليقصد الفُرجة بتلك الوتيرة لو لم تكن هذه المنازعةُ، الخفيّة أو المؤجّلة، قد نشبت. صار الأمرُ عـادةً، ضرباً من المونومانيا (الهوس الأحادي) بين الرّجلين، هوَ نفسُه وشخصٌ آخر، مجهولٌ.

استمرّ الأمرُ سنواتٍ، من دون تبادل كلمة واحدة، ولا حتّى نظرة، ولا رسالة مكتوبة، من دون شيءٍ سوى تبادل الأعلام ذاك.

ثمّ مرضَ الدّكتور كوين. وهو يحتضر على فراش الموت،

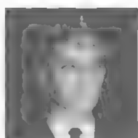
كان يغادر هذا العالم من دون أن يعرف الرّجل الذي صارعَه طيلة هذه السّنوات -وصارعَ بلادَه- على فُرجةٍ ضئيلة.

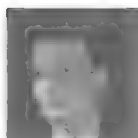
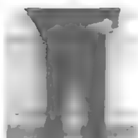
جواباً على اعترافات المحتضَر، أخبرته زوجتُه، السيّدة ليفي، أنّها كانت تهمّ بإدخال خصمه. غادرت الغرفة، ثمّ، دقائق بعد ذلك، عادت إليه بشخصها.

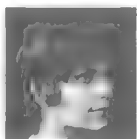
قالت:

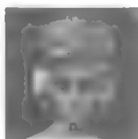
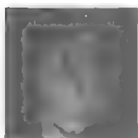
- كنتُ أنا.

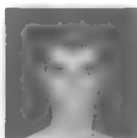


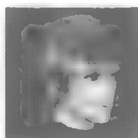




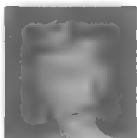















ليفي والغابة

كانت زوجتُه، ليفي، باكستانية، وكان هو هنديّاً، لكن لم يخطر بباله قطّ أنّها: أوّلاً، تستطيع الوصول إلى الفُرجة؛ وثانياً، تجرؤ على شيء مماثل، أي، مواجهته في تحدٍّ ثنائيّ.

سألها كوين:

- لماذا؟

أجابت بفظاظة لم يحسب العجوز كوين أنّها قادرة على إبدائها. لا بل إنّها قالت ذلك بشيء من الكراهية:

- أنا باكستانية.

أياماً بعد ذلك، وفور انتهائها من الحديث عبر الهاتف مع صديقها ماتيو -الرّجل الذي كنّا نسعى إلى بلوغه، منذ البداية، الشّخصية المركزية في هذه القصّة، الرّجل الذي خسر وظيفته مؤخّراً- عادت السيّدة ليفي إلى بيتها، وما إن رأت زوجها، حتّى أدركت أنّ شيئاً ما يكاد يبلغ نهايته.

وفعلاً، ما لبث الدكتور كوين، وهو هنديّ ذكرٌ، أن مات بمدّة وجيزة بعد ذلك. أمّا السيّدة ليفي، وهي باكستانية أنثى، فقد ظلّت على قيد الحياة عقداً آخر من الزّمن. هو، لأنّه ميّت، لم يرجع؛

وهي، ربّما لأنّه لم يعد لها خصمٌ، لم تعد أيضاً: بقيت الفرجة سنواتٍ من دون أن يأتيها بشر.

أخذت مساحة الفُرجة تتقلّص شيئاً فشيئاً. لم يكن ثمّة أيادٍ بشريّة لتزيح، وتقطع الأغصان وتنزع الجذور التي تسعى إلى التّسللِ إليها. انتهى نزاعُ الزوّجين، والفُرجةُ -التي عمّدها كوين باسم فُرجة الحضارة- شهدت تقلّص محيطها في بضعِ سنوات فقط. وما كادت تمرّ ستّ سنواتٍ حتّى اختفت تماماً. واليومَ، لا أحد يستطيع إيجاد الطّريقِ المفضي إليها، لأنّها ما عادت موجودة. الشّيء الذي ما يزالُ يوجد، وإن كان في شكل مِزَقٍ ويصعب تمييزُه، في مكانٍ ما من الغابة الكثيفة، هو: علمٌ. لكن، وكما قلنا، هو الآن في حالٍ من التّدهور، بحيث إن عثر عليه أحد الآن، فلن يكون بمقدوره أن يعرف ما إذا كان علمَ باكستان أم علم الهند. لا بل قد يختلط بخرقةٍ بالية لا دلالةَ لها.

لكن لنأتِ الآن إلى ماتيو، الشّخصية المركزية.



ماتيو خسر وظيفتَه

.1

ماتيو، نعم، ماتيو المعلوم، رنّ الجرسَ من أسفل العمارة. ومن أعلى أجابه صوتٌ نسائيٌّ شابٌّ.

قال ماتيو:

- أتيت بخصوص الإعلان.

كان قد ترك في بيته، على الطّاولة، جريدة ترجع إلى ثلاثة أيامٍ فوق جريدة أخرى أقدم بشهورٍ عديدة.

على الصفحة الأولى من إحدى الجريدتين، صورةُ آلةٍ ودخانٍ تنفثه الآلة. انفجارٌ، تفجيرٌ، لم يعد يذكر.

كانت زوجة ماتيو تصرخ بسبب شيءٍ حدث في المطبخ أو في العالم. كانت تصرخ في الوقت نفسه الذي تطالبُ فيه بالصّمت. لم يجب ماتيو. مِقعدَا الطّفلَين ودرّاجةٌ صغيرة. العجلة الخلفية مفرغةٌ من الهواء، من دون جرس، الدّراجةُ الصّغيرةُ لم تَدُر في الشّارع منذ شهور.

لكن الآن، ماتيو يقف أمام باب المنزل رقم 2 من جهة اليسار؛

«الطّابق الثاني»، كما كُتب في إعلان الجريدة.

تقدّم، كان جاهزاً. لكن جاهزاً لأيّ شيء؟ لم يكن يعرفُ حقاً.

المرأةُ التي نشرت الإعلانَ فتحت البابَ. الصّدمةُ الأولى. كانت مبتورة الذّراعين. لم يقل ماتيو شيئاً؛ ماذا بوسعه أن يقول، عمَّ يمكنه الحديث؟ حاول أن يجيل بصره في كلّ شيءٍ ما عدا في هذه المرأة. كأنّما يلتمس شيئاً في الغرفة، ولكن لا، كان تصرّفه محض خوف.

كان وجه المرأة يشي بحياةٍ سويّة، لا بل كان يفيض لُطفاً، وكأنّما بقية الجسد لا جدوى له إلا دعامةٌ تسند هذا الوجه الذي لا يصدر عنه شيء، ولا حتّى صوت، الأمرُ الذي فَرض على ماتيو أن يتكلّم، وهو ما يزال مضطرباً:

- لم أفهم الإعلان.

كان الإعلان: مطلوب شخصٌ مرافق ليساعد امرأةً شابّة في بعض الأشغال.

قالت:

- قد يبدو لك الأمر أحمقَ، لكن حين تمطرُ السّماء...

ثمّ صمتت.

استطردت:

- فيما مضى، كانت تأتي امرأةٌ مسنّة...

صمتت مرّةً أخرى.

سألته:

- هل تقبل؟

كان ماتيو قد فقد وظيفتَه ثمانية أشهر قبل ذلك. فأجاب موافقاً.

.2

كانت السّماء تمطر، وماتيو يحمل المظلّة التي تغطّيهما معاً. كان جذع آنا، كذلك كانت تدعى، قريباً بسنتمترات من جسد ماتيو، وكان هو يرتجف لأنّها كانت قريبةً جداً، مفرطةً في القرب. كان يحسُّ حرارة جسدها، ولم يكن يحب ذلك.

كانت آنا في الثانية والثلاثين من عمرها، جميلة الوجه. في وضع آخر، وعالمٍ مختلف، كان ماتيو ليسعدَ بالتّجوّل إلى جانب امرأةٍ بذاك الوجه. بحسب ما يذكر، لم يسبق أن حدث له ذلك.

كان ماتيو يترك المظلّة مفتوحةً حتّى وإن كان المطر يكاد لا يسقط. بقيادة آنا، وصلا معاً إلى باب بناية. ممسكاً مقبض المظلّة بيده اليسرى، أغلقها ماتيو بيده اليمنى من جزئها العلوي. ثمّ أمسك بيمناه المظلّة، وبيده اليسرى فتح باب البناية:

- تفضّلي.

كانت لآنا أمور ينبغي أن تنجزَ، وكان حضور ماتيو ضرورياً.

في أحد الطوابق العليا، وجدا نفسيهما أمام موظّفٍ. هذا الموظّف، وبالنّظر إلى الملابسات، شطَّ في إبداء اللّطف، لدرجة أنّ لُطفه اندلق على الأرض، وكان بمثابة خسارة بيّنة. ولربّما أتى أحدٌ يكنس لُطفَه عن الأرض، ولن يكون بمقدور أحدٍ الانتفاع به.

كان ماتيو يراقب هذا الرّجل المفرط في اللّباقة، وأتته الرّغبةُ في ضربه.

سألت آنا عمّا إذا كان ممكناً، وكان ممكناً. وطبقاً للمقتضيات الجاري بها العمل في الحالات المماثلة، وقّع ماتيو الوثيقة باسم آنا.

.3

بعد ثلاثة أشهر من العمل، صار ماتيو الآن يبدو أقلّ توتّراً. وآنا كذلك. بطريقةٍ ما، صار كلاهما معتاداً الآن على حضور الآخر.

بالطّبع كان الأمر بالنّسبة إلى ماتيو مختلفاً. كثيراً ما كانت تعتري جسده رجفةٌ لا رادَّ لها، رجفةٌ تبدأ من ساقيه وتلوي فمه في ابتسامةٍ متشنّجة، لتنتهيَ عند يديه اللذين يرتجفان خوفاً. لكن ماتيو صار الآن يملك وظيفةً. كلّ ما عدا ذلك، مهما كان، يظلُّ ثانوياً.

ذات ظهيرةٍ، غفت آنا في غرفة المعيشة، بينما لم يكن ماتيو قد أكمل دوامَه بعد.

الأشياء حين تنامُ لا تختفي، لكن كانت تلك المرّة الأولى التي يمعن فيها ماتيو النّظر إلى آنا، سمّر عينيه فيها، لم يُزِحهُما عنها، وكأنّما ما يراه لم يكن بذاك القدر الذي يخيف، وواضح، حين تنام.

أثناء نومها استطاع ماتيو أن يتأكّد ممّا كان قد لمحه في اليوم الأوّل: كانت آنا ذات وجه مليح، ولكن في الآن نفسه، كان عند جانب فمها الأيسر ما يشبه طاقةً شريّرة تصدمه. «هذه المرأة لا ينبغي أن تُغوي»، قال ماتيو في سرّه. لا، بل فكّر حتّى في أنّ قدرتها على الإغواء فيها شيءٌ من جُرم. «إنّها تسعى إلى خداع

النّاس»، فكّرَ.

تأمّل آنا بانتباه. وجهٌ كان بإمكانه تقبيله في تلك اللّحظة. لكن، كلاّ.

ساقا آنا، ردفاها شديدا الأنوثةِ، نهداها، جيدُها، ثمّة هنا نظامٌ مركّزٌ بالغ الدّقة، لا، بل أكثر من ذلك، جذّاب. لكن بعد ذلك، انحرفت نظرةُ ماتيو قليلاً، بضعة سنتمترات فقط، انحرفت صوب تلك النّقطة التي لم يكن يريد رؤيتَها، الموضع الفارغ الذي كان قد تعلّمَ تجنُّبه. وحين استسلمت نظرتُه واتّجهت إلى ذاك الموضع، تخلّى عن الفكرة العبثية، فكرة إغواء آنا، لا، إنما بدأ يحدّث نفسه بأنّه سيتخلّى عن عمله. سيعود إلى منزله، ويبحث عن عملٍ آخر، على أن يكون العمل هذه المرّةَ شيئاً مختلفاً، شيئاً عادياً.

.4

لطالما أبهجَ ماتيو قردُ الشّمبانزي الذي يملكه الإسكافُ غوزي، لكن في ذلك اليوم بدأ القردُ يزعجه بعض الشّيء. كان غوزي قد أطلق وثاقه بعدما أغلق الأبواب، فصعد الحيوان على ظهر ماتيو ليقبّله، أو يحاول تقبيله. تشبّث به بذراعيه، ذراعي القرد الماهرة التي تفعل الكثير من الأشياء، وبسرعةٍ تفرض الاحترامَ على أيّ إنسانٍ عاملٍ. كان المكاك، كذا يسمّيه غوزي، قد رمى

ذراعيه حول عنق ماتيو، وبأصابعه السوداء الطّويلة أخذ يبحث عن شيءٍ ضئيل في رأس هذا البشريّ. ثمّ، شرع في الصّراخ والتقافز في زوايا الغرفة الأربع. (حين يكون فرحاً، فإنّه لا يتوقّف: يقفز من الطّاولة حتّى الجدار، حتّى السّقف كأنّما هو في سرك).

صاح سيّدُه غوزي:

- توقّف يا مكاك.

ولكنّ المكاك لم يتوقّف.

كان ماتيو هناك منذ ساعاتٍ، ولم يأتِ أيّ زبون.

قال غوزي:

- إنّه لأمرٌ مثير للدّهشة. لا أحد يأتي. ما عاد النّاس يمشون. يظلّون ساكنين لا يتحرّكون. لا أحد يشتري شيئاً، ليكن ذلك، لكن على الأقل ليتمشَّ النّاسُ قليلاً! الأسبوع الماضي أصلحتُ زوجَي حذاء. أوَ تدري إلى ما سيقودني كلّ هذا؟ إلى أن آكُل المكاك. يوماً ما سآكُل المكاك. ما كان يحزنُ ماتيو هو أنّ محلّ صديقه غوزي يتدهوَرُ بشكلٍ بيّن. كان ماتيو قد زاره منذ ثلاثة أسابيع، ومنذ تلك الزيارة تدهور المكانُ بشكلٍ ملحوظ.

- هدّدني مالك المحلّ بأنّه سيطلق عليّ الرّصاص، فأجبته

بأنّه بعد ستّة أشهر يستطيع أن يأخذ منّي المكاك. إنّه يساوي ستّة أشهر. لست مدينا له إلا بخمسة أشهرٍ حتّى الآن. ما زال أماميَ شهر. وإلا فإنّي قد آكل المكاك. بدأ الجوع يصيبني.

أشار ماتيو إذّاك إلى أنّ القردة تُؤكل في العديد من البلدان، وأنّ لحمها طيب. بدا القرد كأنّه يفهم أنّ الحديث يدور حولَه، ولم يكفّ عن الحركة. أدرك أنّهما يتحدّثان عنه، لكنّه لم يدرك أنّهما يتحدّثان -وإن تهكّما- في أكله. كان القرد سعيداً، وأشفق ماتيو عليه، أشفق على غوزي، وأشفق على نفسه.

- بعد أربعة أشهرٍ في هذه الوظيفة، ألم تعتد عليها بعد؟

لم يجب ماتيو، وإنّما اكتفى بهزّ رأسه نافياً.

ثمّ انتهى بأن أفضى إلى صديقه غوزي:

- لا أحد يعتاد هذا.

.5

مجدّداً السّؤالُ نفسُه، وحركةٌ من الرّأس نافية.

- لا أحد يعتاد.

دخل ماتيو لتوّه إلى البيت، وكان يرتعد. أعلن أنّه سيترك عمله، لم يعد يستطيع التحمّل. كارلا، زوجة ماتيو، كانت صارمة: إنّنا بحاجةٍ إلى المال.

ظهيرة ذلك اليوم، وللمرّة الأولى، إليكم ما حدث. بالطّبع، لم يحكِ ماتيو لزوجته شيئاً من هذا. قال فقط إنّه يريد أن يترك عمله، إنّه لم يعد يستطيع التحمّل.

ظهيرة ذلك اليوم، وأثناء دوامه بوصفه شخصاً مرافقاً، دعت آنا ماتيو إلى أن يأتي ويجلس بقربها ليشاهدا التلفاز. توجّه ماتيو، كعادته، إلى جهاز التلفاز وشغّلَه بسبّابة يده اليمنى. غادر الصالون دقائق، ثمّ عاد. على الشّاشة كانت امرأة مضطجعةً على سريرٍ، منهمكة في تقبيل خصيتَي رجل. تحجّر ماتيو، واقفاً، عند مدخلِ غرفة المعيشة. لم ينبس بكلمة. آنا، وهي ما تزال على الأريكة، تنظرُ إلى ماتيو. بوجهٍ محمرٍّ، وعينين ثابتتين، سألته عمّا إذا لم يكن يرغبُ في الجلوس. ظلّ ماتيو مسمّراً لا يتحرّك. قال:

- عليّ أن أذهب.

.6

أسابيع مرّت من دون أن يزور ماتيو غوزي. كان الأمر إذن صادماً.

الباب المواجه للشّارع كان مغلقاً. فكّر ماتيو في أنّه أمرٌ غبي. كيف يريد غوزي أن يأتيه الزّبائن والحالُ هذه؟

ثمّ دخلَ وتحجّرَ، لقد أعفى غوزي لحيةً هائلةً، وكان منظره مرعباً. كان القرد إلى جانبه ساكناً لا يتحرّك، وحين دخل ماتيو، بخلاف ما يحدثُ عادةً، لم يتحرّك الحيوانُ. كان القردُ قد هزل، وغوزي هزل.

قال غوزي:

- لن أتأخّر في أكل المكاك.

- ربّما فهم القردُ أنّهما يتحدّثان عنه، لكنّه لم يتحرّك. كان يبدو حزيناً.

كان المكان منتّناً، ولاحظ ماتيو وجود بَولٍ في الأركان.

- قال صاحب المحلّ إنّ بوسعي البقاء هنا. لا أحد سيرغبُ في هذا المسكن الحقير. إنّه إنسانٌ شهم. لكن كيفما كان الحالُ فإنّ المشكلة لم تحلّ. لا نستطيع أكلَ الجدران.

قال ماتيو:

- المكاك مريض.

أجابه غوزي:

- المكاك جائع. هو الآن هادئ، لا يتحرّك، لكن في لحظة ما من النّهار سيتذكّر ساعات الطّعام... آنذاك يقفز في كلّ مكانٍ، ويخدشني؛ لقد سبق أن هاجمني.

كان غوزي جالساً إلى منضدته، منهمكاً في إصلاح فردتَي حذاء.

قال:

- سأحلّ عدّة مشاكل دفعةً واحدة: سآكل المكاك.

.7

آنا في أحضان ماتيو، وردفاها يتلوّيان على إيقاعٍ هيَ من يحدّده. ماتيو على أريكة الصالون، قبالة الفيلم الذي يلقي إليه بنظرةٍ من حين إلى آخر، وقضيبُه منتصبٌ انتصاباً لم يتخيّله قطّ قادراً عليه. يمسكُ ردفَي آنا بيديه معاً، ليصاحب حركاتها، ويحاول أن لا يفكّر في أيّ شيء آخر، يحاول خاصّة أن لا ينظر

إلى أعلى، يركّزُ، على أبعد تقدير في وجهها، وأحياناً، لكي يتجنّب رؤية ذلك، أي رؤية الفراغ مكان ذراعها، يدير رأسَه بشكلٍ طفيف فيلمحُ على الشّاشة قضيبين وفماً ينتقل بينهما.

.8

حين تضمّه زوجتُه إليها، يبدأ ماتيو يرتجف. ذراعا زوجته حول عنقه كانتا تشعرانه بالغثيان.

منذ شهورٍ أصلاً وماتيو يتجنّبُ زوجته، كارلا، لكن في الآن نفسه، أحياناً، يمكث في المطبخ أو الصالون يتأمّلُ يديها، الطريقة التي تتحرّك بها يداها، تحرّكان شيئاً من موضعٍ إلى آخر. كفعلٍ سحريّ: تأخذ صحناً من خزانة الأواني وتضعه على الطاولة.

لم يفقد زمام أمره إلا مرّةً واحدة. كان قد غادر منزل آنا لتوّه بعد يوم من العمل، وإذا به يصادف، على بعد مجموعةٍ من المنازل، صديقاً لم يرَه منذ زمنٍ طويل، ولفرحه مدّ إليه يده تلقائياً. وفقط بعدما أحسّ برودة تلك اليد، فقد ماتيو فجأةً كلّ قدراته وخفض رأسَه كي لا يلاحظ صديقه شيئاً.

ما إن دخل ماتيو بيته، حتّى صار فريسةً لإحساسٍ غريب، كان موزّعاً بين عالَمين متوازيَين، كأنّما عمله غير إنسانيّ، كأنّها يتعلّق

الأمر بشيء آخر. كان يتابع طفلَيه، أحيانا يستمتعون معاً باللهو بأشياء صغيرة، وفي تلك اللّحظات، كان ينتابه الإحساس بأنّه يتظاهرُ، وكأنّما هو، سواء في هذا الجانبِ أو في ذاك -أي في منزله أو في عمله حين يكون منشغلاً بالاهتمام بآنا- كان يتقمّص شخصيّةً. في الأسبوع، يقضي تقريباً عشر ساعاتٍ في اليوم مع آنا، وما كانت تلك الساعات تمنحُه إياه كان يجعلها مسوّغة. بيد أنّ العودة إلى العالم كانت مزعجة. حين يغادر بيت آنا، كان يحسّ نفسه فاقداً الاتّجاه. لم يكن يعرف أين يضع يديه، كان يحسّهما بلا فائدة، كان ينتابه الإحساس بأنّ بوسعه التخلّص منهما.

قال ماتيو لزوجته:

- غوزي يفقد عقله. يقول إنّه سيأكل المكاك.

.9

رنَّ الجرسَ. كان صوتُ رجلٍ من أجابَ. أحسّ ماتيو بارتياح. لقد كان مجدّداً بلا عمل. صعد.

انفتح البابُ آليّاً. دخل ماتيو. يبدو الرّجل في الأربعين، وهي إلى حدّ ما سنُّ ماتيو. كان يرتدي قميصاً قصير الكُمّين، وهو ما وجده ماتيو مقزّزاً. على أنّ الانطباع هذه المرّة لم يكن عنيفاً.

كانت أطرافه ظاهرةً، لكنّ ماتيو بذل مجهوداً لكي لا ينظر إليها.

قال الرّجل:

- ثمّة سلسلة من الأشياء التي أحتاج فيها مساعدةً.

أجابَ ماتيو موافقاً بإيماءة من رأسه.

.10

صفق ماتيو بعنفٍ بابَ منزله. إنّه ساخط. شجارٌ آخر. يحمل تحت ذراعه الدراجة التي ما عادت تعمل، وما عاد يستعملها أيّ من طفليه. أصرّت زوجته على أن يرميها في حاوية القمامة. «لن يرغب أحدٌ في شرائها، ولا تعمل إلا على احتلال المساحة».

كان ماتيو قد ترك وظيفته الثانية منذ خمسة أشهر، ومذّاك فشل في إيجاد عملٍ آخر.

طوّح بالدرّاجة فوق ركام من الأنقاض، ورأى على الفور عجوزاً تقترب لكي ترى ما يمكّن أن تصيبَه.

إنّه ساخط على زوجته، بسبب الصّراخ الدّائم في البيت، لكنّه يحاول أن يسيطر على نفسه.

ثلاثة أيّام بعد ذلك، ذهب لرؤية غوزي، وكان الوضع قد بلغ حدودَه القصوى. لم يعد القردُ يتحرّك، لا بدّ أنّه يموت، وغوزي تبرّز أمامَه في إحدى الأركان. لم يعد المرحاض شغّالاً.

لم يستطع ماتيو البقاء بالدّاخل سوى بضع دقائق.

في جميع الأحوال، لم يكن يملك إلا الكلامَ، والكلام لن يغيّر شيئاً. لا يملك نقوداً بالمرّة. «لا فائدة في العودة» فكّرَ، ولكنّه عادَ مع ذلك.

الثامنة صباحاً. يطرق الباب. لا جوابَ ولا صوت. كسر الباب. على الفور لمحَ حذاء غوزي الباليَ، ثمّ رأى بعد ذلك غوزي، أعلى قليلاً، يتأرجح. الرّائحة منتّنة، ثمّة براز وبولٌ في كلّ مكانٍ. صرخ ماتيو، ثمّ فتح باب الغرفة الصّغيرة المجاورة. كان القردُ هناك.

.11

حاملاً بيديه شيئاً مغلّفاً بالبلاستيك، يمشي ماتيو واثق الخطوة. بتلك الحزمة ينبغي أن يعبر أحد الشّوارع الأكثر اكتظاظاً في المدينة. يمرّ من مدارٍ شهدَ حادثةً خطيرة. ثمّ يلج أحد مداخل مترو الأنفاق.

كأنّما يحمل طفلا صغيراً أو حيواناً منذوراً لأن يُؤكل في احتفالٍ ما، كان ماتيو يضمّ الحزمة إليه وقد صار يحسّ آلاماً في عضلاته لفرط ما ترك ذراعيه مثنيّتين ومضمومتين.

النّاس يشمّون الرّائحة، فيبتعدون عنه. ماتيو ينزل في محطّة السوق الشعبي و، ممسكاً دوماً الحزمة بيديه المضمومتين، يصعد درجات المترو حتّى المخرج. وحين يلمح من جديد ضوء النّهار، يتنفّس الصّعداء.

12.

كلّ شيء يباع في السوق الشعبي. ثمّة أناسٌ يبيعون ما سرقوه -معدّات هاي فاي، لوحاتٌ، مجوهرات، آلات صغيرة-، لكن الكثيرين يبيعون فقط ما استطاعوا أخذه من بيوتهم.

بجانب ماتيو، على سبيل المثال، يوجد رجلٌ، نِدِرماير، يبيع صوراً عائلية قديمةً.

قال له ماتيو إنّه لا يملك نقوداً، لكن إن استطاع هو نفسه أن ينجز صفقة، فسيشتري منه بعد ذلك الصّور.

قال الرّجلُ، نِدِرماير:

- منذ ساعةٍ شاهدتُ عدّاءً صدمته سيّارةٌ. إنّه ليومٌ طويل.

(لم يقل نِدِرماير شيئاً -بباعثٍ من لباقة، أو لأنّه لم تعد به قوّة للاحتجاج- ولكنّ رائحةً كريهةً كانت تنبعث من العلبة التي توجد عند قدمي ماتيو).

مدّة طويلة ولم يقترب أحدٌ من ماتيو أو من الرّجل الذي يبيع صوَرَ زواجه. (بالطّبع صار اليوم أكبرَ سناً، لكنّه كان هو بعينه الموجود في الصور إلى جانب امرأةٍ. لا أحد يرغب في صور زواج شخصٍ آخر، لكنّ ذلك تقريباً هو الشّيء الوحيد الذي كان الرّجل يملكُ أن يبيعه. العشرات من صور زواجه، لا إطار، بلا أيّ شيء، فقط صور لا غير).

أخيراً دنا رجلٌ يبدو بالأحرى أنيق المنظر.

تجاهل صور الـزّواج. عند قدمَي ماتيو كانت تلك العلبة المغلّفة بالبلاستيك، ذات الهيئة الغريبة.

أشار الرّجل إلى العلبة وسأل عمّا هي.

أجابه ماتيو:

- مترٌ على عشرين سنتيمتراً. إنّه قردٌ.

سأله الرّجلُ:

- قرد؟

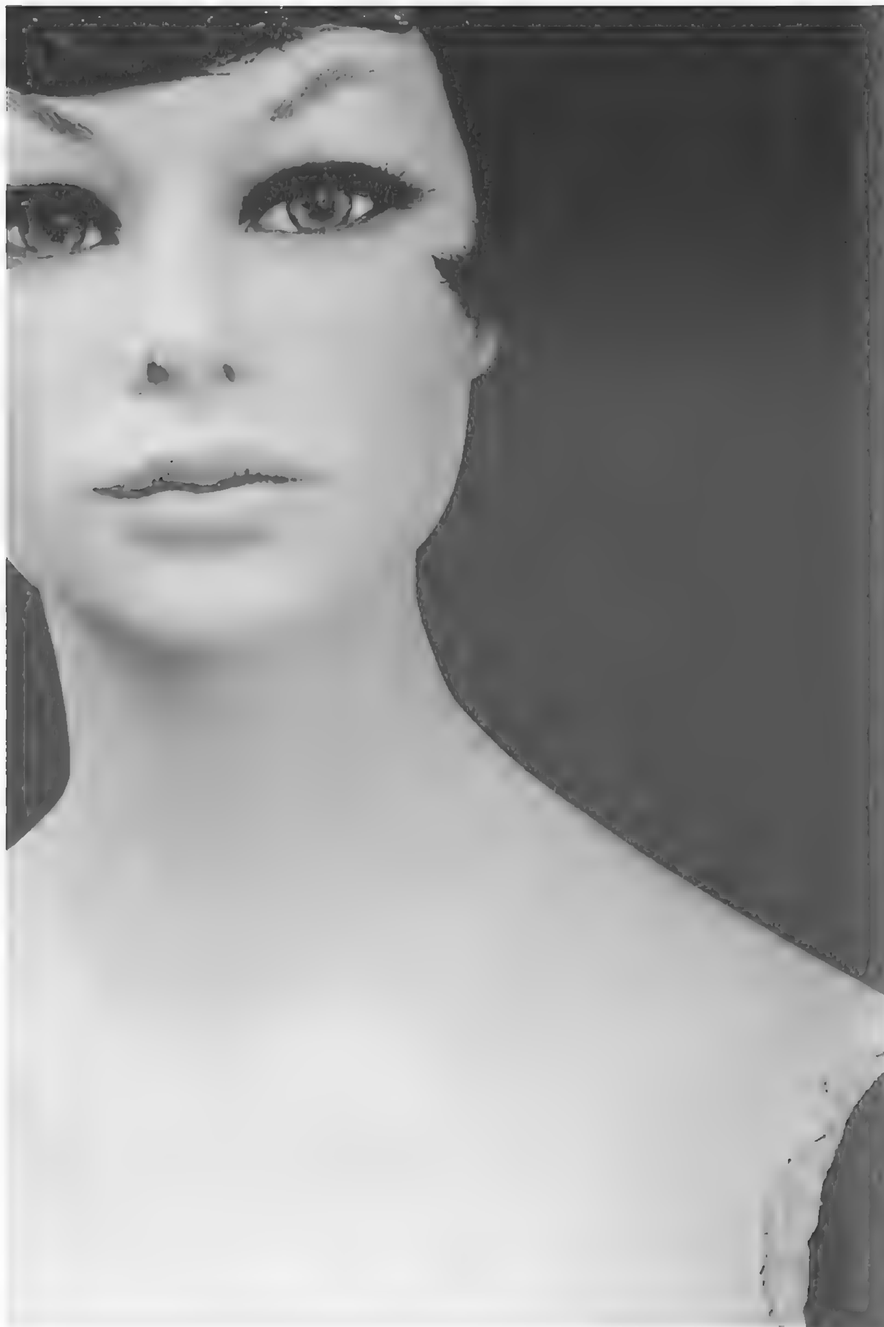
أجاب ماتيو مؤكّداً:

- نعم، إنّه قردُ صديقي غوزي.

- قردُ صديقك غوزي؟

أجاب ماتيو مؤكّداً:

- نعم، قردُ صديقي غوزي.



حاشية على

ماتيو خسر وظيفته

(تذييل)

«ثمّ أتى إليّ رجلٌ يحمل بين يديه

قرداً مريضاً، وقال:

- عالج قردي.

- لا أعرف كيف أعالج الحيوانات، إنّها لا تملك روحاً».

وليام بوروز

.1

نفكّر ونحن في صُلب الحركة؛ نفكّر بينما نركض، نفكّر كي نستطيع الركض. لنتذكّر موزيل وقولَه: «إنّ فكرةً تدوم أكثر من خمس دقائق، هي أصلاً فكرة ثابتة. تُستثنى من ذلك الأفكار في العلوم». التشخيص: لسنا مهيّئين لنعرف كلّ شيء منذ البداية، ولهذا السّبب بالضّبط نواصلُ، ونطرحُ الأسئلة. كامر والتحقيق: إذا ما تقدّمتَ، فإنّك تترك خلفك إمكان التّراجع. مثل مجنونٍ يدور في حلقة مفرغة: في الآن نفسه الذي يتقدّم فيه، يتقهقر. يتقدّم صوب نقطة انطلاقه، يتراجع صوبَ وجهتِه، والأمر ينسحبُ علينا نحن الكائنات الحيّة: نحن الأشياء الحائرة، الثملة، المنجذبة إلى الطّريق وليس إلى الجهة العليا من العالم (ننظرُ إلى الأمام، ومن هنا عمانا الجزئيّ). نحن مجانين لأنّنا نملك الوقت: إنّ الوظائفَ والضّرورةَ قد تُركت بضع دقائق بين مطلبٍ والمطلب الذي يليه. وما يصيب بالجنون، هو الملل، ولكن أيضاً الإفراط في الأسئلة.

.2

الاستفهامُ جوهريٌّ. فرضُ تأكيداتٍ تحدّد الأسئلة. «لا أقولُ، أنا أسألُ»، يؤكّدُ أحدُهم. مثل مجنون لا يضبطُ، في العالم الواقعي، عالمَ علامات الاستفهام؛ وكأنّما علامات الكتابة هي أشياء مجرّدةٌ لا يمكن للإنسان حملُها لا في صوته، ولا في الأشياء. هل أنا أسألُ، أم أنا أقول، أم أنا أجيب؟ أنّى لي أن أعرف؟ هو ليس إلا صوتاً ينتقل من إنسانٍ إلى آخر؛ إنّ أمراً، على سبيل المثال، قد يكون سؤالاً سهلاً؛ طلبُ مساعدةٍ هو قريبٌ قرباً مذهلاً من الملاحظة الوظيفية لجلاّدٍ؛ هوَ ذا: في العالم، تكون الأشياء والطّريقة التي يعيش بها النّاس أعقدَ، لأنّ ليس ثمّة، مثلما في الكتابة الهادئة، علاماتُ التّرقيم التي توضّح كلّ شيء للّذي يقرأ، وكأنّما الذي يقرأ أبله.

- هل سبق لك أن أسأت معاملة حيوانات؟

- نعم.

- هل حدث أن اعتنيت بحيوانٍ؟

- لا.

(كامر والتّحقيق).

.3

لطالما كان التردّد بالنّسبة إلى بعضهم مشروعَ حياة. أن تكون قادراً على التردّد حتّى النّهاية، تلكم هي الصّعوبة. أحياناً، يصل إنسانٌ إلى منتصف حياته، وبغتةً يشرع في الرّكض بكامل سرعته، وكأنّما يعرف إلى أين يذهب. آخرون لا يفعلون ذلك، وتلكم هي الحكمة: أن تتوقّف، في لحظة الانطلاق المثير والسّريع، لتربط سَيْرَ حِذائك. إنّنا نتردّد بسبب نقصِ الوسائل التي تمكّن من اتّخاذ القرار. إنّي أفتقر للوسائل اللازمة لممارسة رياضة اتّخاذ القرار. وها أنا ذا أُلفي نفسي أقول: هيّا، فوزوا، أتوسل إليكم. وهو ما يعني بشكلٍ ما: لا وقت لديّ للفوز، أنا منهمك كلّ الانهماك في التردّد لدرجة أنّي أظلّ هنا، أدور حولَ لا شيء، لدرجة أنّي أصير نموذجاً سلبياً. إذا ما أثارني شيءٌ ما، فيجب عليّ أن أوليه ظهري؛ إذا ما أصابني الملل، ففيه ينبغي أن أمكث. اسمي لا ينبغي أن يعرفه إلا المحتضَرُ. ذاك الذي يريد أن يتكلّم، لكنّه يصمت، الذي يحاول أن يتنفّس فلا يستطيع، الذي يحاولُ قلبُه أن ينبض لكنّه يبقى في وضع التباس، وإذ لا ينبض، لا تأتي اللّحظُة الموالية فيموت الجسمُ بأكمله، وكأنّما الضيوفُ جميعاً اتّفقوا على أن يغادروا في اللّحظة نفسها حفلةً مفرطةَ الصّخب. والحالُ أنّه، إن غادر كلّ المتسبّبين في الصّخب الحفلةَ في وقتٍ واحدٍ، فإنّ الحفلة الصّاخبةَ، بالدّاخل، تصيرُ حفلةً صامتة، ثمّ لا شيء.

وباتّجاه الخارج يذهب الضّجيج. لكن ربّما هنا يكمن الفرقُ: في الخارج، يحوطُ الضيوفَ عالم هو، مع كلّ شيء، أرحبُ وأقلّ انتباهاً من قاعةٍ فرديّة. سأقوم بضجيج وسط العالم، يعني: سأقوم بالصمت (لأنّ العالم كبير وشديدُ الصّخب).

في ماتيو خسر وظيفتَه، ليس ثمّة من تردّد فيما يخصّ مسارَ الحكي، لأنّه، لحسن الحظّ، ثمّة الترتيب الأبجدي[4].

.4

هي ذي محاكمُ التّفتيش: أنا أسألُ سؤالَ مجنونٍ. أنا، سائل السّؤال، ألعبُ دورَ الأحمق، وأنت، المجيب عن السّؤال، تلعبُ دورَ الإنسان العاقل، بعبارةٍ أخرى: أسألُ أيّ شيء، أسأل بعينين مغمضتين، أسألُ وأنا ثملٌ، أسأل حتّى من دون أن أعرفَ تصريفَ الأفعال، أسأل وأنا في حالة اختلالٍ مطلقة، وأنت، تجيب دوماً الجوابَ نفسَه مهما كانَ السّؤال، تجيبُ بما أريدُ أنا أن أسمَعَه، لأنّي أنا الممسك بزمام القوّة. هي ذي محاكمُ التّفتيش. فيمَ يهمّ السّؤال الذي أطرحُه؟ تستطيعَ حتّى أن تسدَّ أذنيك، أن تضع يديك عليهما، أمامي، سيّانٌ عندي، أنا عضو محاكم تفتيش، لست إنساناً أتى يتحاورُ. اُسْدُدْ إذن أذنَيك وأجب عن

(4) تظهر الشّخصيات حسب ترتيب حروف اسمها في الأبجدية اللاتينية.

سؤالي، أأنت قادرٌ على فهم هذا؟

نعم، يجيبُ ذاك الذي لم يسمع شيئاً.

أحد أسئلةِ استمارة كامر:

- هل تستطيع حاسّةُ السّمع أن تحلّ من النّزاعات أكثر ممّا يحلّه النّظرُ؟ وهكذا يُفترض أن يكونَ جوابٌ معقولٌ: عفواً، لم أسمع السّؤال. هل بإمكانك أن تعيدَه؟

.5

كيف تجد في الغابة، حين تتيه، منزلك الفعليّ؟ هنا تكمن الصّعوبة. أن تجد منزلك في المنزل، ذلكم ما يستطيعه النّاسُ الذين يعرفون كيف يحدّدون مواقعهم، النّاس الذين لديهم بوصلات، الذين يتعرّفون على الطّريق التي سبق أن سلكوها، ووَجْهَ النّاس الذين ندرك، مبدئياً، أنّهم ليسوا ذئاباً تشتهي رقابنا الشّديدة الطّراوة. إنّه إذن أمر كبير بالنّسبة إلى الهواة، إلى النّاس من قليلي الموهبة.

أن تجد منزلك في قلب الخطر، تلك مسألةٌ أخرى، مثل نجارٍ يملك عدداً من الدّعامات في حالة توازنٍ لثوانٍ معدوداتٍ فقط. لا بدّ أنّ الدّعامات ستسقط، لكن، انظر، بالنّسبة للّحظة الرّاهنة،

ولثوانٍ معدوداتٍ، هي لم تسقط، وإن كانت على وشك أن تسقُط. على أيّ حال: مثل منازعة الأعلام التي حدثت في قصّة كوين، فإنّ الصّعبَ هو أن تفرض في قلب الغابة وتداً حميماً بدرجة أو بأخرى. أن تعود إلى منزلك، ليس بالأمر الصّعب، يكفي أن لا تضلّ الطّريق. الصّعب هو أن لا تعود إلى المنزل: ذاك أنّ الأمر يستلزم منك إرادةَ أن لا تتعرّف، مرّةً أخرى، على الطّريق.

.6

باومان والنّفايات؛ ما لم يعد يذهب إلى أيّ مكانٍ، تلكم هي النّفايات. لكن هذا فقط بالنّسبة إلى من يشتغلون في جانبٍ معيّنٍ، يشتغلون في هذا الجانب، إن جاز لنا القولُ؛ أمّا الآخرونَ، أولئكَ الذين يشتغلون بجانب النّفايات، فيفهمون الأمرَ. وحدهم أولئك الذي تكون روائحهم كريهةً يفهمون أنّ النّفايات تبدأ قصّةً جديدة، أنّ جانبَ النّفايات هو جانبُ البداية، جانب الكلمة الأولى. بعبارة أخرى: هو ذا ما كان قد أُغلقَ ملفّه تماماً، نقصد النّفايات، ينبعثُ من جديدٍ كأنّما بفعل حيلةٍ قديمة من حيل ساحرٍ، ويقول: ها أنا ذا قد عدتُ من جديد، بوسعنا أن نبدأ!

وبالفعل، تبدأ القصة، في مكانٍ ما.

.7

انظروا مثال كاشين الذي، بإدخالِ «لا»ئه إلى العالم، مجرّد «لا»، حرفان لا غير

ل

ا

أقحمَ الكاووس[5]؛ أقحمَ، بطريقةٍ ما، الشرَّ، الشّر بحرفين من الأبجدية، Pan-démonium، الشيطانُ في كلّ مكانٍ، مثلما هو الشّأنُ في حقيبة يد النّساء، بانديمونيوم حقيقي، هوَ ذا العالمُ وهوَ ذا نصٌّ: يكفي إذن أن تضيفَ الـ «لا» هناك حيث كانت فيما قبل الـ «نعم»، لكي تحضرَ الجحيم، اللا طمأنينة.

.8

هو ذا التّفكيرُ: معرفةُ الرّسم. الهندسة، كما نعلم، شيءٌ قديم؛ هي ما يفصلُ، وما يصِل.

لكن بوسعنا أن نفكّر فيما يأتي، أن نفكّر في هذه الوضعية:

---

(5) الكاووس، كلمة مهمّة جداً في هذا المتن وتشير إلى العماء أو الفوضى الكونية، في مقابل الكوسموس الذي يشير إلى النّظام الكوني.

وضعية التلميذ الذي يريد على الفور رسمَ اللا نهاية. نعطيه قلماً، وهو بالكاد يعرف رسمَ رأسٍ، بالكاد يعرف أنّ رأس الإنسان يوجد أعلى الجذع، والقدمين أسفَلَه -الجسد الإنسانيّ، ثلاثة أجزاء: القدمان والجذع والرأس الذي هو عبارة عن عجلة، شيءٌ في القمّة ويدورُ، يعمد التّلميذ إذن إلى قسمة واحد على ثلاثة، يقسم جسد أمّه إلى ثلاثة- ثم هذا التلميذُ، مع ذلك، يريد أن يرسم فوراً اللا نهاية، ولأنّ المعلّم الذي لا يعرف عواقب ذلك يقول له: هيا انطلق. لكن إذا ما انطلق التّلميذ فسينتهي المطاف بالمعلّم بأن يخسر وظيفتَه، أو ربّما أسوأ: سلطتَه، أو ربّما أسوأ: هالتَه. سيفقد اعتباره عند التّلاميذ، شأنه شأن مدرّس الجبر الذي، وإن كان يعرف كلّ شيء -يعرف كيف تتقاربُ الأرقام وكيف تتباعد- وإن كان قد وُهب ذهناً متوقّداً، وشديد النّظام، فإنّ له نفَساً كريهاً، إذ يشربُ الخمرَ ليستطيع مقاومة كلّ تلك الدّقة. لذا لا يطلبُ منه تلاميذه أيّ شرحٍ، حين تعترضهم صعوبةٌ، يفضّلون أن يظّلوا جاهلين بالرّياضياتَ، يفضّلون أن لا يفهموا الأسس على أن يضطرّوا إلى الاقتراب من فم كريه الرّائحة. ذلكم هو التّعليم، وربّما أيضاً أمثولةً، شيئاً من هذا القبيل.

.9

لنفكّر في ذاك المعلّم، دياموند، والنّفايات التي تتقدّم، ولكن تتقدّم رأسياً، صاعدةً، تبلغُ شيئاً فشيئاً الطوابق العلوية في المدرسة؛ وعلى كلّ شيء، على الرّائحة الكريهة، تستمرُّ رغبةُ التلاميذ في التّعلّم، ومدرّسهم لا يستسلم. بمَ يتعلّقُ الأمرُ؟ بتخييلٍ، تحديداً، بكذبةٍ، بقصّةٍ للأطفال -لكن، ماذا لو كان العالمُ حقاً كذلك؟ لكن في الواقعِ، كلاّ: لا أحدَ يتعلّمُ شيئاً وسطَ النّتانة- بل لعلّ النّتانة أكثر إعاقةً من الضّجيج المفرط، أو الاستثارة، إنّنا نتعلّمُ وسط الجلبة أفضل ممّا يمكن أن نتعلّم في مطبخٍ مليء بالفضلات.

لنفكّر مرّةً أخرى فيما يأتي: الرّجلُ (باومان) الذي ينظّفُ النّفايات، والنّفايات التي تواصل إلى ما لا نهاية الصّعودَ واحتلالَ مختلف طوابق التّعلُّمِ. على سبيل المثال، لو أنّ تلميذاً أراد أن ينتحر، فيسكون بوسعه دوماً الإلقاءَ بنفسه من النّافذة، لكنّه إذّاك سيسقط وسط النّتانة، وسط الأشياء المقزّزة، بينما هو يريد أن يسقط وسط لا شيء، أن يسقط على شيءٍ يوقفُ البكاءَ. أرجوكم، احذفوا حاسّةَ الشمّ. لذا كانت تلك المدرسة بنتَ الخيال. أن يُمنعَ الأطفالُ من سدِّ أنوفهم بملقط غسيل، لأمرٌ أشدُّ سوءاً من أن تُسدَّ النّوافذُ كلّها. أن تتعلّمَ القراءة والكتابة والحساب وأيضاً: أن تتعلّم ألا تشمّ. القمامة ترتفع، ومن بينها سيخرج الخارقون

الذين سيحمون العالمَ من الانهيار، ولكن ذلك لن يحدث إلا لأنّ الأطفال سيكونون قد تحمّلوا بشجاعةٍ رواقيّةٍ رائحةَ ما يتنُ: لقد تعلّمتُ الرّياضيات بينما كان العالم بأكمله ينزُّ نتانةً؛ لقد ركّزتُ انتباهي على الدّقة، على المنطق، على الأعداد العشرية التي تحدث في الأعداد تغييراً لطيفاً. أن تكون منتبهاً إلى الأعداد العشرية حتّى وأنت محاصرٌ بما يتفسّخُ. هو ذا الإنسانُ وقرنُه، لكن ربّما يكون في الأمر شططٌ: لا شيء يمكن أن يحدّدَ بجملةٍ واحدة؛ حتّى الأشياء الكبرى، من قبيل قرنٍ، لا يمكن أن تحدّد بجملةٍ واحدة (مع أن هذه المسألة، التي هي البداهةُ نفسُها: كلّما زاد الشّيء صغراً، احتجتَ كلماتٍ أكثر لوصفه. مثال ذلك: العالم كلّه بكلّ ما ينطوي عليه من اختلافات: حتّى طفلٌ يملك الكلمات لوصفه. العالم واضح كصباح الخير، بالنّسبة إلى طفل؛ بالمقابل، ورقة شجرةٍ أو مكروبٌ، هو ذا ما يتطلّب خطابَ متخصّصٍ طويلاً).

.10

مثلاً، المدارُ ذو الشّكل المربّع: مدارٌ يتطلّبُ / يفرض حركةَ شخصٍ يتجنّبُ مربّعاً، أو العكس. مدارٌ أعاقته الهندسةُ.

نصيحة: أَقلِل الكلامَ: تحدّث عمّا هو كبير. تحديداً: حبسةُ الكلام إزاءَ الهائلِ. حاول أن تكون مصاباً بالحَبْسة، أي حاول أن تجد الَمكان الذيَ نكون فيه إزاء شيء كبير؛ كلّ الأشياء الصّغيرة خلف ظهرنا، وما أصعب أن يجد المرء مثل هذه الوضعية! بشكل ما، هي متاهةٌ مماثلة لتلك التي يعرفها السّمينُ هوروفيتز حقَّ المعرفة. لكي تبلغ الحبسةَ التي لا تظهرُ إلا إزاءَ العظَمةِ، تحتاج أن تعرف مسارك وسط المتاهة. على أنّ الحياة شبيهةٌ بذلك: حين تكون قد عرفتَ، حين تكون قد لمحتَ المخرجَ، عليك أن تنتظر، بباعثٍ من أدب، بباعث من لياقة، الرّجل البدين الذي يزحف ببطءٍ أمامَك، علَيك أن تنتظره، أو بالأحرى، عليك أن تتبعه، لأنّه، هو البدين، من أنقذك، هو من أرشدك إلى الطريق التي تسلكها للخروج من هذا النّفق الذي هو في شكل مساراتٍ يستحيل رسمُها، رسمةُ مجنونٍ، تلكم هي المتاهة. لكن بلى، أنتَ حيٌّ، وأن تكون حياً هو هذا: ترى نوراً يعلنُ عن النّقطة التي انطلاقاً منها لا نرى إلا أشياءً عظيمةً، وبباعث من اللّباقة لا تتخطّى منقذكَ.

المسيح لا يمشي البتّة في إثر الحواريّين، الحواريون لا يقودون المسيح البتّة (اللّهم إلا بعدما مات). وإليك ما يحدث: بما أنّك لبق، فإنّك تمشي في إثر البدين، لكنّ البدين لا ينفكّ يخرج من المتاهة، فتموت وقد كنت على أهبة بلوغ النّقطة التي ما كنتَ لترى منها إلا العظمةَ الأعظمَ، النقطة حيث كنتَ لتصيرَ مصاباً بالحبْسَة؛ بلى، غير أنّ لا شيء من ذلك سيحدث لأنّكَ لبق.

.11

بخصوص الجرائم: انظُر إلى هذه الصورة، هل هو هذا الرّجل؟ نعم، يجيب عشرةُ شهود.

الصورة تبرهنُ؛ الصورة بوصفها عمليّة عقلية بامتياز؛ الصورة قد عوّضت الـ 2 + 2 = 4. الصورة: نورٌ على الورق. الأنوارُ[6] الحقُّ ليست أنوار الموسوعة أو الاستدلالات العلمية الكبرى؛ إنّما الأنوار الحقُّ هي تلك التي تلد الصورة، الفوتوغرافيا، الفيلم؛ كلّ ذلك هو قمّةُ قمم الأنوار، مصيرُ الإنسان الأعظمُ: النورُ هنا أخيراً، النور الذي يبرهن على كلّ شيء. أَهو هذا الرّجل؟ نعم، هو: هو على الصورة.

(6) الأنوار كعصرٍ وكسيرورة وعمليّة في آنٍ.

هو أيضاً المجرمُ (نتحدّث الآن عن ذاك الذي يشير بالصّورة)، لأنّه هو من استعاض، مرّةً واحـدةً وإلى الأبد، عن الذكاء، والاستنباط، والاستقراء وغيرها من المناهج، بصورةٍ. إنّه هو المجرمُ، سيقولُ من ما يزال يعيش في قرنٍ آخر، وما يزال يعتقد أنّ العقلانية تقتضي التّفكير. في حين أنّ التفكير لا شيء، بالطّبع. أن تكون عقلانياً في القرن الواحد والعشرين، معناه أن ترى.

.12

بهذا الصّدد، يمكننا القول إنّ، الضريرَ غولدشتاين يعوّض عماه -إذ هو محرومٌ كلياً من عقلانية القرن العشرين- بالمال. إنّه ثريٌّ.

المال بوصفه طريقةٍ أخرى للنّظر. أنا لا أرى، لكنّي أملك المال، بعبارةٍ أخرى، تلك طريقتي في أن أكون عقلانياً: إنّني أشتري. بما أنّني لا أفهم، بما أنّني لا أستطيع النّظر-أن أشهد بحاسة البصر- فإنّي أشتري. أجل: إنّ الشّراء يحلّ محلّ النّظر، لأنّ أن أشتري يعني أن أحوز إمكان أن أفرض الاقترابَ. ما اشتريه هو ما أستطيع أن آمُرَه: اقترب. هو ذا إذن المسارُ: إنّي لا أرى، أنا أعمى، لكنّي أشتري. يعني: إنّي أجبرُ الشّيء الذي لا

أفهمه على أن يقترب منّي بحيث أستطيع أن أمسّه. في المحصّلة، لستُ أرى، لكن، بما أنّ لديّ نقوداً، فإنّي ألمس. النّقود هي ما يسمح باللّمس.

الأعمى غولدشتاين لا يرى، لكنّه يلمس. ومن هنا أهمّيةُ المومس، «الشّيء» القابل للّمس بامتيازٍ، ما يلمس بفضل النّقود: كلّما زادت نقودك، لمستَ أكثر، فعرفتَ على نحوٍ أفضل. المومس تلخّص العقلانية البديلة، عقلانية العميان. أنتَ محروم من عقلانية القرن العشرين -الفوتوغرافيا، الصورة- لكنّك تستطيع أن تفهم بطريقة عرجاء، أن تفهم على شاكلة أعرجٍ قرّر أن يتخلّى عن الإصرار على الرّكض، وبدلاً من ذلك يرقص، فصار مثار إعجابٍ بسبب طريقته المميّزة في الرّقص. حين يرقص، لا أحد يلاحظ أنّه يعرج، مع أنّ لا أحد (بما في ذلك الأعرج) يستطيع أن يرقص طويلاً جداً.

.13

الأعمى الغنيّ، غولدشتاين، منجذباً إلى عناصر الجدول الدوريّ الضئيلة. أعمى، هو في العمق، منجذبٌ ليس فقط إلى ما هو مرئيٌّ، ولكن أيضاً إلى ما تصعب رؤيته، حتّى بالنّسبة إلى أولئك الذين وُهبوا عيوناً قويّة. منجذباً، بمعنى ما، إلى اللا مرئيّ، إلى ما يبلغ من الصغر درجةً بحيث لا يراه حتّى أولئك الذين يتمتّعون بقوّة النّظر. أن يحسّ نفسه قريباً من المبصرين، ليس لأنّه قد صار يرى ما يرونَه، وإنّما لأنّه يجرّهم -أقصد المبصرين- إلى المجال الذي يكون الجميع فيه عمياناً.

جدول العناصر الدوريّ كعالم بديلٍ، عالم موازٍ بالنّسبة إلى العميان: لا سيارات ولا منازل، ولا شجرٌ أو حجر -في هذا العالم الذي يحكمه المبصرُ- وإنّما بالأحرى الاتّجاه صوبَ جواهر العالم الدّقيق: العناصر الدورية. ها نحن أولاء إخوة: غولدشتاين وجدوله الدوري، والنّاس الدّقيقون، أولئك الذين يملكون حدّة بصر الصّقر، النشّالون على سبيل المثال، أولئك الذين لا يرون فقط الظّاهرَ، وإنّما يلمحونَ أيضاً شرودَ الآخرين، يرون النّقطة التي يصوّب إليها صاحبُ المحفظة اهتمامَه. يرون -نتحدّث عن النّشالين- ما يفكّرُ فيه الآخرُ. (يرونَ موضوعَ التّفكير: على خلاف وضعية الأعمى، الذي لا يرى حتّى وجه من يفكّر، بلهَ ما يفكّر فيه).

ما بين النّشال والأعمى إذن ثمّة مسافةٌ شاسعةٌ. لكن هو ذا غولدشتاين وجدوله الدّوري على ظهر العاهر غوتليب. إنّي أرى جزء العالم الذي يهمّني عبر لمس ظهرك، إنّها شبقيَّة تحلُّ محلَّ القدرات البصريّة. بما أنّني لا أستطيع التّمييز بصرياً بين القريب والبعيد، فإنّني أبرهن لنفسي على قرب شيءٍ ما، بلمسه.

.14

ليس ثمّة هنا أيّ شيءٍ مشوّش على وجه التّحديد. ما المتاهة التي ضاع فيها هولزبرغ وهورنيك اللّهم إلاّ ذاك العجز المتمثّل في أن نلفيَ أنفسَنا حبيسي رسْمَةٍ فُصاميٍّ؟ مختزلين أوّلاً (منمنمين)، ثمّ محاطين برسمةٍ مجنونةٍ حازت خطوطُها بعداً ثالثاً. ها نحن أولاء إذن معاقبون على سلامة عقلنا، والمتاهةُ دوماً عقابٌ له علاقةٌ بالنِّسَب: في أيّ متاهةٍ، كيفما كانت، ندركُ أخيراً أنّنا أقزامٌ ولسنا كائناتٍ طبيعيّةً. المتاهة في الواقع آلةٌ لصنع المنمنمات. لا نستطيع الرؤية من فوقِها، فلسنا كباراً بما يكفي: وعليه نحن ضائعون. لسنا ضائعين وسط الحياة، لا بل أسوء: إنّنا ضائعون من بداية الحياة، ضائعون ونحن لمّا نزل صغاراً، لم نبلغ بعد الطول المناسب لرؤية الخطوط من فوق، فندرك من أين يمكننا الذّهاب. هما ذان الصّديقان إذن يبحثان عن فُتات خبزهما كما

في حكاية الأطفال، لأنّه مهما كانا كبيرين وجادّين ومهمّين، فإنّ المتاهة تفرض العودة في الزّمان صعداً؛ بهذا يتعلّق الأمر؛ أن تعودَ طفلاً. في العمق، لا شيء يجمع المتاهة بالفضاء؛ إنّها بالأحرى تبلبل إدراكنا للزّمان: كنّا نحسب أنفسنا كباراً بالغين، وها نحن أولاء: صغارٌ، حمقى ندورُ في دائرة. ولا يتعلّق الأمر فقط باتّباع خطٍّ دائريّ -شأنَ ما كان يفعل السيّد آرونسون- إنّها منعطفاتٌ بلا نهاية تحيلنا من جانبٍ إلى آخرَ. وكأنّما نحن لم نقتحم متاهةً وإنّما آلةً، وإنّ بكراتِ الآلة، تلك المدارات الميكانيكية المصغّرة، مثلها مثل غيرها -نقصد المدارات الكبيرة، مدارات المدينة- توزّعُ العملَ على جانبٍ، ثمّ بعده على الآخر، يميناً ثمّ يساراً. إنّنا صغارٌ جداً باحثونَ عن كِسرة الخبز التي ترشدنا إلى الطّريق، لدرجةِ أنّنا لم نعد داخلِ قصّة أطفال، وإنّما الأمر أفظع: إنّنا داخل آلة بها مداراتٌ ضئيلةٌ ترسلنا إلى جانبٍ ثمّ إلى آخر وكأنّما هي تضربنا؛ لكن، كلاّ، إنّما نحنُ فقط فاقدو اتّجاه؛ وهولزبرغ وهورنيك ينتهي بهما المطاف إلى الخروج، ليس من فضاءٍ، وإنّما، كما أسلفنا، من زمانٍ؛ كأنّما يخرجان من صورةٍ قديمة، صورة كانا ما يزالان فيها صغيرين، لم يبلغا بعد طولاً كافياً. يخرجان من المتاهة، كأنّما يخرجان من الطّفولة -خلف هوروفيتز، الرّجل البدين، يعيد هولزبرغ وهورنيك ربط الأواصر بسنِّ الرّشد. إنّهما مجدّداً بالخارج، خارج المتاهة- إنّهما مجدّداً

راشدَين -وهو إحساسٌ رائعٌ، نعم، لكنّه لا يدوم سوى لحظاتٍ. إنّه إحساس أن تمشي على رسم، على خطوط. في العمق، داخل المتاهة، أنتَ صغيرٌ وأنت خائفٌ؛ وخارجها، تصير كبيراً- وإنّ المشي على خطٍّ لأسهلُ من القفز على الحبل.

الآن، أنت راشـدٌ وارتفاع الأشياء المحيطة بك شديدة الاستقرار. ولو أنّ هولزبرغ وهورنيك فكّرا مليّاً، لعادا أدراجهما، بعدما أُنقذا، لعادا إلى المتاهة.

.15

كامر والتّحقيق. المشكلة دوماً هي هذه: إنّه أنت من يملك الأسئلة، حريّتي إذن معدومة. لا أملك إلا أن أجيب. البلاهة المشتركة: يحسب الشّخص أنّه حرّ لأنّ بوسعه أن يجيب، لأنّ بوسعه أن يختار. الاختلاف الأكبر، هو الآتي: إنّك مجبر على الاختيار: نعم، لا، وإنّ هذا الإجبار هو ما يحرمك من أشدّ الحريّةِ جوهريةً.

نعم أم لا، ليس لي أيّ تفضيل. بل بالعكس.

.16

مرّةً أخرى: لنرسم، ولا نحسب. إنّ الأمر مختلف تماماً: 1، 2، 3، 4، 5، أو: أن ترسم. أن توزّع الخطوط عشوائياً في الفضاء. أو أن تمنح هذه الخطوط شكلاً، أن تنظّمها.

مثلما هو الشّأن بالنّسبة إلى الجدول الدوريّ الذي رسمه **غولدشتاين** على ظهر العاهر **غوتليب**. ليس المهمّ أن نعرف أيّ العناصر ظهرَ أوّلاً؛ وإنّما المهمّ -بالنّسبة إلى من يلمس ظهر غوتليب- هو أن يعرف موضعَ كلّ عنصرٍ. الاختلاف بين أنا أعرف لأنّي أستطيع تحديد الموضع، وأنا أعرف لأني أحسن التّنظيم. أن تُنظّمَ يعني أن توزّع في الفضاء (لكنّي أستطيع أن أعرف اللا نظام)؛ حتّى إنّه تمرينٌ جيّدٌ: رسم اللا نظام، أن ترسم أو تصوّر الموضع الذي انفجرت فيه قنبلة. أن تعرف هو هذا: أن تضع خرائط للا نظام. لو أنّ المعرفة كانت تتلخّص في وضع خرائط للنّظام، لآل الأمر إلى الدوران حول نفسِك: إلى التّقهقر، إذن؟

.17

إنّنا لا نتمكّن دائماً من تعليق جديّتنا حين نقفز على الحبل أو حتّى حين ننفجر ضاحكين. كم من ضحك جديٍّ بلا سبب أقحمناه في العالم؟ في العمق، تحت الضحك البلا سبب المتعذّر التحكّم فيه، ثمّة دوماً الوجه السيّئ الذي يقول للآخرين: لا تقترب أكثر من اللازم، ابقَ حذراً لأنّني شخصٌ آخر، أنا لست الشّخص الذي يطيعك، وإنّما أنا الشّخص الذي يصارعك.

في سفينة العقل، يفرُّ سبعة رجالٍ، من بينهم كِسلر. في العمق، يتعلّق الأمر بفرارٍ ذي علاقةٍ بالجِدِيّة. وحدهم الجادون يفرّون؛ وعلى النّقيض من ذلك، أولئك الذين يمشون مشيات بهلوانية، لا يلقون أيّ تهديد في أن يكونوا محاطين بالحمقى. إنّ المدينة جديّةٌ، وحين تنعدم فيها الجديّة، ينبغي أن يهرب النّاس، فيؤسّسون مدينةً أخرى. في سفينةٍ، تكون بعض الأمور أسهل من غيرها، لكن، على سبيل المثال: الفرارُ أصعبُ بكثير: لو أنّ المدن كانت مدناً سُفناً، لاتّخذنا تدابير أنظمة معقّدة نحاول عبرها منع فرار البعض.

.18

ما معنى: سبعة رجالٍ عاقلون في مركب؟ يعني: سبعة عقولٍ في مركب، سبعة صراعاتٍ ممكنة، سبعة أسلحة، سبعة استدلالات، سبعة توتّرات، سبعة أقواس، سبعة أسهم، سبع طرقٍ في تهديد من يحيط بهم، سبع طرائق دفاعية؛ باختصار، سبعة موتى، سبعة قتلةٍ بالقوّة[7].

لكنّ اقتحام فكر الآخرين هو أيضاً: السّماح لجسد الغير بأن يحتلّ الفضاء الذي يحتلّه جسدنا في هذه اللّحظة. بمعنى ما: إذا ما اتّفقتُ معك، فإنّي أخلي لك موضعي.

ولأنّ الرّجال السّبعة في المركب لا يملكون إلا مساحةً محدودة، تحوطهم المياهُ والغرق، فإنّهم على وعيٍ بيّنٍ بهذا الأمر. لا أستطيع أن أتّفق معك، لا أملك المساحةَ الضرورية للاتّفاق معك، ليس لي ما يكفي من أمتار مربّعة لأتمكّن من الاتّفاق معك؛ كحدّ أقصى، لست من الملّاك الأغنياء بما يكفي لكي أتخلّى لك عن عقلي. لأن تقرّ بصواب الغير، هو حرفياً: أن تمنحه صوابك (عقلك)، أن تسلّم عقلك مثلما يسلّم المهزوم رأسَه ليقرّر المنتصِرُ في أمرها.

(7) بالمعنى الفلسفي (الأرسطي تحديداً): الوجود بالقوّة، أي ما يحمل إمكان التحقّق ولم يتحقّق بعد، في مقابل الوجود بالفعل الذي تحقّق.

أأقطع رأس العقل الذي تمنحني إيّاه، أم أتحلّى بالشّهامة؟ بديهي أنّ رجال المركب السّبعة لا يملكون من الوقت ما يسمح لهم بإبداء التّعاطف. إنّ التّعاطف يتطلّب زمنا يكاد يقترب من الشّعور بالخلود. أستطيع أن أكون خيّراً مع الآخرين لأنّي سأملك بعدُ من الوقت ما يكفي لأكون خيّراً مع نفسي.

.19

في نهاية المطاف، يفترق الرّجال بهذه الطّريقة: أوّلا هم كثرٌ في مدينةٍ واحدة؛ ثمّ هم سبعة في مركب -أولئك الذين يظنّون أنفسهم عقلاء- يشكّلون جماعةً، جمعية، جمعية الرّجال الفارّين، التي يسيّرها كِسلر؛ ثم، أربعةٌ منهم يصيرون مجانين فيفرّ الثلاثة الآخرون في زورق؛ ثمّ اثنان، فواحدٌ، كلاين. هو ذا أن تكون حياً: من مئة ألف أنتقل إلى سبعة، ومن سبعة إلى ثلاثة، ومن ثلاثة إلى اثنين، ودائماً في النّهاية: واحد، بما أنّ الغرق دوما ما يكون فردياً. بحكم ذلك، فإنّ ما وقع يعكس جيّداً مسار مختلف العقلانيات الفردية: ستبتعد عن أولئك الذين يفكّرون بطريقةٍ مختلفة جداً عن طريقة تفكيرك. إنّه ابتعاد سلمي لا يعمل إلا على زيادة المسافة بين عقلك وعقل الآخرين (أن تفرّ، أن تبتعد، ... إلخ. هي طُرقٌ لتخزين الفضاء). وأولئك الذين هم شديدو القرب، أولئك الذين

عقولهم المفردة أقرب إلى عقلك المفرد، سينتهي المطاف بك إلى قتلهم، بعنفٍ. لأنّهم قريبون جداً منك، ومنذ وقتٍ طويلٍ جداً، بحيث لم تعد تملك من الفضاء ما يكفي لاختيار إمكانٍ آخر. والنّتيجة أنّك تَقتلُ.

.20

في العمق، المتاهة هي أيضاً هذا: عدد لا نهائيٌّ من الطّرق المسدودة. من كلّ جانبٍ، طُرقٌ لا تؤدّي إلى هدف، أو: كثيرٌ من الطّرائق في أن لا تذهبَ إلى أيّ مكانٍ: تلكم هي المتاهة. وبما أنّه ليست ثمّة في العالم إلا حقيقةٌ واحدة وحلٌّ واحدٌ، فإنّ المتاهة تؤسّس لذاك الشّيء العجيب الذي هو الاعتقادُ في طريقٍ وحيدة؛ إنّها لعمليّةٌ عنيفةٌ: كلّ الطّرق مسدودة إلا واحدةٌ. ذاكَ ما فهمه هورنيك وهولزبرغ.

متاهةٌ على الشّكلِ الفضائيّ لديانةٍ. يبدو أنّها رسمةٌ لديانةٍ، لمعتقدٍ. في العمق، إنّ أوّل مينوتورٍ[8] يظهر لا يعمل إلا على تسريع الأمور، والإسـرارِ لنا بأنّنا فانون. إنّنا فانونَ لأنّ ثمّة المينوتور الذي يقتلنا، فليس بوسعنا إذن أن نجلس منتظرينَ

(8) حيوان أسطوري، نصف إنسان/نصف ثور، يحرس بالعادة الخرائب والمتاهات الجحيميّة.

الحلَّ: عليك أن تكون مؤمناً، لكن بخطوٍ سريعٍ، ذاك ما تقوله لنا المتاهة التي يحتلّها الحيوان الخسيس: صلِّ لتجد المخرج الوحيدَ، لكن صلِّ مثلَ عدّاء مئة متر، صلِّ وأنت تركض بأقصى ما في وسعك من سرعةٍ. إن كنت سريع الرّكض، فلن تحتاج إلى كلام مقدّس. سينتهي الرّكض قبل بداية الصّلاة.

.21

إنّ مركباً هو أحد أجمل الشظايا المادية التي وُجدت، مركبٌ صغيرٌ على متنه سبعة رجالٍ عقلاء، هي ذي شظيّةٌ مميّزةٌ. شظيّةٌ تتقدّمُ، تقطع حيّزاً، تحملُها طبيعةُ المياهِ العاديةُ، شظيّة لا تحتاج القيامَ بجهدٍ لكي تتقدّمَ، الرّجال السّبعة العقلاء لا يحتاجون إلى التّجديف لكي يتقدّموا، يكفيهم أن يستسلموا للتيار يجرفهم. وإذن، وسط شظيّة تتنقّلُ وحدَها، توجد سبعة عقول.

الانتقال من ذاك المركب إلى مركبٍ أصغر، يعني القفز إلى شظيّةٍ جديدة، صوبَ بداية جديدة، ولأنّها ستكون أصغر، فستكون أرشق.

.22

التحكّم، دائماً هذا القلق. أن تكون قبطان السّفينة (على أنّ العالم ليس على هذه الشّاكلة) أو، مثل هِلسل: حبس كلّ تلك الحشرات الضئيلة، ثمّ عدّها وإحصاؤها. أكبر أماني هِلسل: أن تسمح له الحياة بأن يكون محاسباً، شخصاً يظلُّ بالخارج ولا يفعل إلا العدّ (مثل طفلٍ يتعلّمُ): 1، 2، 3، 4.

والحال أنّ، العالم لم يكن عادلاً مع هِلسِل حين توفي والده، لأنّ المحاسب الصّرف، الملاحظ الصّرف لا أبَ له، إنّه وحيدٌ في العالم: إنّه ليس وحيداً مع كلّ أحبابه، مثلما كان يقول نوفاليس، وإنّما هو وحيدٌ، وهذا كلّ ما في الأمر. يأتيه خبرٌ، وهذا الخبر يوقف عمليّة الحساب: المتفرّج مدعوٌّ إلى الخشّبة، أو هو، مع بقائه في موضعه مثل متفرّج، مهدّدٌ بالسّلاح الأصيل الذي، وفقَ سيناريو سريّ، وفق دراماتورجيا سريّة آتية من المشهد، يقتلُ في السّاعة المقرّرة، في الدّقيقة المضبوطة، المتفرّجَ الذي كان يحسب أنّه يشغل وظيفة محاسبٍ أو مجرّد قاض: أعجبني، لم يعجبني. حسناً، الرّصاصة أخيراً حقيقيةٌ، وأخيراً هي من نصيبك. ذاك ما يقوله السيناريو.

لا، بل نستطيع حتّى أن نفكّر في شخصيّة لا تكون محاسباً يهتمّ بالأشياء، بالنّعوت (شخصيّةٌ لا تحسُب التّفاح، والسيّارات الحمراء، والأشجار، والنّساءَ، جميلاتٍ أو قبيحات، والأطفالَ)، محاسب يرفض حساب هذه الأشياء المادية التي تشغلُ الفضاءَ -حيوانات، نباتات، آلات، عناصر بشرية، صراصير كما في حالة هِلسل- ويركّزُ بدلا من ذلك، هذا المحاسب المراقبُ على وقائعَ، على أحداثٍ، على أفعال، على عناصر تنبثق في العالم في اللّحظة نفسها التي ستختفي فيها. مثلاً، إحصاء عدد المرّات التي سيقوم فيها النّاس -في الشّارع الفلاني، أثناء نهار الثالث من مارس من سنة كذا- بوضع أيديهم على رؤوسهم، أو يمشّطون شعرهم، أو يصيحون، أن تحصي ما يفعله كلّ واحدٍ لأنّك تعرف أنّه سيختفي. أن تحصي، في العمق، أشياء لا مرئية؛ وقائع، أجل، لكنّها وقائع لا تتكرّر ولا يمكن تثبيتها.

هِلسل واللا دقّة؛ ما يبلبل الدّقة: الموت. مثل حادث: محبرةٌ يندلق حبرها بسبب حركة خرقاء على صفحة مُحاسَبةٍ لا نملك عنها نسخةً.

.23

أحياناً يكون تمريناً جيداً: تصوّر العالم كجمعٍ حافلٍ بالتشنّجات، شأنَ كوهِن. وتشنّجات العالم تلك يمكن أنَّ نسمّيها عاداتٍ أو موافقات؛ تشنّجات مدينةٍ، هو ذا ما ينبغي لمحاسب حضريّ، لملاحظ اجتماعي جيّد، أن يبحث عنه. وإنَّ التّشنّجات الحضرية، التّشنّجات الاجتماعية هي تحديداً، تشنّجات، أي أفعال لا إرادية، بلا وظيفة. أفعال بلا فائدة، هدرٌ للطّاقة. كم تشنّجاً تنطوي عليه المدينة؟ ما كميّة الطّاقة المهدورة، تبعا لذلك، عكسَ اتّجاه الهدف؟

وإن جاز لنا التعبير، فإنّ مدينةً، جمعاً، تعاني أيضاً من **الكوبروبراكسيا، تلك الطّريقة اللا إرادية في سبٍّ الآخرين،** والإساءة لهم. هو ذا ما يستطيع، وما ينبغي، أن يضطلع به طبيبُ مدينةٍ (طبيب حضَريّ): أن يفحص المدينة مثلما يفحص الطبيبُ كوهِن: أن يصف لها أدوية ضدّ التشنّجات، أن يعلّمها طرقاً تتحكّمُ بوساطتها في هذه الأفعال الطّائشة و، خاصّةً، السّعي إلى تقليص عنفِ الجَمْع؛ إنَّ المدينة هي بمعنى ما كوهِنٌ لا يكفّ عن شتمنا لأتفه سبب. ونسامحُه لأنّه قد تمّ اطّلاعنا مسبقاً على طبيعة مرضه. الكوبروبراكسيا، ذلكم هو مرض المدن الكبرى.

.24

كاشين و«لا»آتّه. «لا» هي اللّفظ الأكثر إثباتاً في عالـم اللّغة. أكثر بكثير من الـ«نَعم»؛ إنّ الـ«نَعم» تستفتح استمراريّةً، «نعم» وأتقدّم، «نعم» ثمّ شيءٌ آخر. الـ«نعم» تبدأ، والـ«لا» تُنهي. الـ«لا» تختم. ليس ثمّة من لفظٍ أكثر إثباتاً؛ إنّها في اللّغة، الكلمة الأشدُّ قتلاً. هل تريد؟ لا. هل ستأتي؟ لا. هل تريد؟ لا. هل فعلتَ هذا؟ لا. ستفعله؟ لا.

إنّ ما نراه في قصّة كاشين، هو تحديداً هذه الدّقة التي تنفجر، دقّة تعتريها العديد من الأحداث؛ إنّ «لا» تُزعج، تُسائلُ، «لا» لا تتحكّمُ في آثارها.

هذا كاشين وبرنامجه: خلخلة العالـم عن طريق ما لا لبس فيه.

.25

لنفكّر مرّةً أخرى في كِسلر: إنّ «لا» قاطعةً لا لبس فيها تثير خلافاً ينتهي بطلاق. يفرّ كِسلر إلى جزيرةٍ حيث، شيئاً فشيئاً، يصير الجميع حمقى.

مدفوعاً إذن بالـ«لا» التي تنظِّمُ: إنّ الـ«لا» هي التي ترتّب المصطلحات، أكثر بكثير ممّا تفعلُ الـ«نّعم».

لنفكّر في الاصطلاحات اللينيوسية[9]، أو أيّ اصطلاحات أخرى غيرها: خاصيةُ الـ«نعَم»، مبدئياً، هي أن تربطَ نباتاً بنباتٍ آخرَ غيره، وإنّ الـ«لا» هي من يفرّق، هي من يفصل، يرتّبُ بعض العناصر في جهة، وبعضها الآخر في جهةٍ أخرى. لكن إذا ما أردنا أن نكون منصفين: الـ«لا» والـ«نعم» يعملان يداً بيد من أجل إحداث نظام في البلبلة التي نحنُ طرفٌ فيها. البلبلة دائماً ما تتسيّد العالمَ، وأن تحاول تنظيمها عبر الاصطلاح يعني أن تدبّر عملية السيّر بمقود «نعم» و«لا»؛ وفقط بعشراتٍ من الـ«نعم» وعشراتٍ من الـ«لا» ننظِّمُ الكاووس، إلى أن نبلغ اللّحظة التي ينفصل فيها كلّ عنصرٍ عن باقي العناصر؛ من العالم الشّاسع والضّاجّ والملتبس، نصل، بطريق الـ«لا» والـ«نعم»، إلى وحدةٍ هي الحدُّ الأدنى. ذلكم هو تاريخ العقلانية. على أنّ ما نراه في قصّة كِسلر

(9) نسبةً إلى كارولوس لينيوس، عالم النّبات السويدي الذي إليه يرجع التّصنيف الحديث للنّباتات.

هو شيءٌ مختلف أشدّ الاختلاف. إنّ كِسلر في موضعه، هو متزوّجٌ، إنّه هنا في هذا الموضع لأنّه قد أجاب بـ«لا و«نعم» على سلسلة من الأسئلة. إنّ الوجود يدفع بالإنسان حتّى نقطة معيّنة، وأحياناً، نظنّ أنّ تلك النّقطة هي النقطة النّهائية، وأنّه من الآن فصاعداً لن يعود ثمّة من أسئلة تستوجبُ الجوابَ بـ«نعم» أو «لا». لعلّ ذلك هو ما فكّر فيه كِسلر، وهو أيضاً السّبب في أنّ تلك الـ«لا» التي كتبها كاشين، من دون أن يكون ثمّة سؤال قبليّ يستوجبها، قد زرعت الفوضى، فحثّت على الحركة، على تغيير ما كان يبدو ناجزاً، ما كان يبدو أنّه قد توقّف ولم يعد له من مكانٍ يمضي إليه. إنّ الـ«لا» التي كتبها كاشين في ظهر كِسلر لا تنظّمُ، على عادة الاصطلاحات والحواسيب، وإنّما هي على العكس من ذلك: أوّلاً، تستلُّ كِسلر من حياته السّابقة؛ ثمّ، تلقي به في أكبر بلبلةٍ، جزيرة المجانين، جزيرة أولك الذين لا يفهمون. مجانين مثل أولئك الذين لا ينفكّون يخلطون بين الـ«نعم» والـ«لا»؛ إنّهم لا يميّزون بينهما البتّة، يستعملون اعتباطياً أخطر سلاح عقلانيّ في العالم، نقصد اللّفظين الصّغيرين. على أنّ كِسلر، شأنه شأن أيّ إنسانٍ آخر، لا يتنازل عن إيجاد موضعه وسط هذه البلبلة من الوقائع، والأحداث، والأشخاص؛ إنّه يريد أن يجد مكانه المتفرّد وسط الاصطلاحات التي يحسب نفسه قادراً على التحكّم فيها. لذا هو يفرّ من المجانين، من اللا نظام، من العالم الذي تعوزه بنيةٌ

تصنيفيَّة، يفرّ في مركب مع ستّة رجال. هي ذي عملية اصطلاح تتحرّكُ. من كتلةٍ معمّاةٍ (الحمقى)، يتمكّن كِسلر على الأقل منَ بلوغ مجموعةٍ تضمّ سبعةً. لكن الإنسان يظلّ إنساناً: موهوماً بالفكرة التي يكوّنها كلّ إنسانٍ عن مصيره، هو ذا كِسلر يتقدّمُ ومعه كميّةٌ من «نعم» و«لا». «لا» تريدُ المواصلة مع أربعةٍ من الرّجال السّبعة، إذ يبدون بالنّسبة إليها مجانين بدورهم، و«نعم» تريد المواصلة مع الاثنين الآخرين. لقد تقدّمت عمليةُ التّصنيف خطوةً. كان كِسلر من قبل في مجموعة من سبعة، والآن هو في مجموعةٍ من ثلاثة. هل هو راضٍ؟ «لا».

أحدُ أولئك الرّجال الثلاثة يُنظر إليه على أنه مجنون، بوصفه صاحبَ خصائص مختلفة لا تسمح له بأن يبقى في المركب نفسه، لسنا جميعاً في المركب نفسه، ذاك ما يقوله كسلر لباسكال، بخصوص حكايته، إذ إنّ لِكِسلر الطّموح الشّائع، نقصد طموح أن يحصل المرء على مركب يخصّه وحدَه. أنا وحدي في هذا المركب، تلكم هي العبارةُ الّتي يفرضها القرنُ الجديد متجاوزاً العبارات الكلاسيكية. والحال أنّ كسلر حقاً في مركب، لكنّ شخصاً آخر بصحبته: رجلين ومركبٌ واحدٌ، عنصرين من عناصر العالم وموضعٌ واحدٌ، هو ذا اصطلاحٌ ما يزالُ خاطئاً، لأنّه غير تام، فيه عنصرٌ زائدٌ، لأنّ كلّ النّاس مختلفون؛ من المهين أن نفكّر فيَ أنّ شخصاً أو شيئاً يمكن أن يوجد في مركبٍ واحدٍ مع آخرَ

غيره. تلكم هي العقلانية في حدودها القصوى، تلكم هي أقصى درجات البُعد عن الجنون. قبل أن يتمكّن كِسلر من قتل آخر رفقائه، قُتِلَ هوَ، وإنّ هذا الفعل الذي هو نتيجة العقلانية القصوى، هذا الفعل الذي يثبّتُ آخر قرارات نعم-لا، قرار «لا» النهائية، قلنا إنّ هذا الفعل ليَشهدُ، في العمق، على مآلَ الطّريق التّصنيفية. كِسلر وحدَه، كجثّة. كلاين، وحدَه، في المركب. العقل الذّكيّ قد أكمل طريقَه وفكرة القرن، بشكلٍ ما، قد تحقّقت.

ما يحدث بعد ذلك للنّاجي الوحيد، كلاين، هو قصّةٌ أخرى. ربّما عُد مجنوناً لأنّه دفع بالعقلانية التّصنيفية حتّى حدودها القصوى. إذا ما أردتَ أن لا تُعتَقل، نصيحةٌ: لا تُقل «لا»ءكَ الأخيرة. عليك أن تتوقّف قبل ذلك.

.26

أمرٌ هامّ: الأبجدية بوصفها نظاماً تراتبيّاً، عنصر اعتباطي يفرض نظاماً يبدو لنا منطقياً. تلكمُ معجزةٌ.

في ماتيو خسر وظيفته، كلّ شيءٍ يحدث وفق ترتيب أبجدي. مثلما هو الشّأن بالنّسبة إلى أطفال مدرسةٍ: كلّ شيءٍ يسير وفق ترتيب أسمائهم أبجدياً؛ الجميع ينضبط للنّظام، وهكذا، هكذا فقط، نصل إلى ماتيو، إلى حرف م.

.27

يمكن أن نفكّر فيما يلي، الآن فقط خطر ببالي: الاثنان وعشرون رجلاً الذين تعلّموا على يد مدرّسهم دياموند، الاثنان وعشرون رجلاً الذي قاوموا الرّائحة الوبائية التي يُفرزها مَدُّ القمامة الصّاعد الذي لا يصدُّ، أولئك الرّجال الذين يحفظون تنظيم المدينة، حائلين، سراً، دون أن تَهلك؛ [قلت] يمكن أن نفكّر في أنّ أولئك الرّجال الاثنين والعشرين هم في نهاية المطاف تَجَسُّدُ حروفِ الأبجدية. وطالما يشتغل أولئك الرّجال، سرّاً، حولنا، فإنّ بوسعنا أن نثق في العالم.

لكن لو أنّ كلّ واحدٍ كان حرفاً أبجدياً، فلربّما تكون الحروف

النّاقصة هي ما يفسّر الفوضى التي تتزايدُ من كلّ جانبٍ.

ثقةٌ أيضاً في التّناظر بين الأحداث المتعاقبة وأحجار الدومينو الموضوعة في شكلٍ دائريّ. ثقة في التّناظر: الترتيب الأبجديّ / ترتيب الأحداث.

.28

غلاسر عند العاهرات، حاملاً خلفَه بطّاريته. إنْ قُطع الرّبط مع البطّارية التي تغذّي قلبَه الاصطناعيّ فإنّه سيموت. على أنّه في تلك الوضعية الهشّة، حيث مجرّد انقطاع ربطٍ، ربط كهربائيّ على وجه التّخصيص، كافٍ ليؤدّيَ إلى وفاتَه، إلا أنّ غلاسر لا يتخلّى عن الحياة وعن القيام بكلّ ما يرغب فيه. ثمّ بعد ذلك عليه أن يضاجع منخرِطاً في المضاجعة ما أمكنَه، ولكن أيضاً بكامل العناية والانتباه كَي لا ينقطع ربطُ البطارية. في العمق، جميعنا غلاسر، يكفي قطع ربطٍ لكي نموت. ربمّا كان لغلاسر، مقارنةً بباقي الشّخصياتِ، امتيازٌ: إنّه يعرفُ بالضّبط أيّ ربطٍ هو الأهمّ بالنّسبة إليه، يعرف بالتّحديد موقع الرّبط الذي يؤدّي قطعه إلى وفاتِه. الشّخصيات الأخرى كلّها، والنّاس العاديون، يجهلون هذا

الرّبط الأوحد.

غلاسر: يبرزُ شرطَه مثل كائنٍ فانٍ عبر إبراز ربطِه.

لكن لنأخذ بعين الاعتبار أنّ الحفاظ على هذا الرّبط غير كافٍ وحدَه. ذاك أنّ قلبَه يتغذّى من بطّاريةٍ، وعليه: من الضروري أن تُشحن البطّارية بانتظامٍ، إذ لا فائدة في أن نكون مربوطين بشيء ميت.

ومن هنا فإنّ ما يبحث عنه الجميع هو الآتي: تحديد موقع بطّاريتهم الأوحد ومعرفة كيفية شحنها.

.29

لنفكّر أيضاً في جدولٍ دوريّ لا يقترح ترتيباً للعناصر المكروسكوبيّة، وإنّما للمدن. مداخل كثيرة يمكن أن تؤخذ بعين الاعتبار بالنّسبة إلى جدولٍ مماثل: عدد السّاكنة، المساحة بالمتر مربّع، الغنى، عدد الحروب التي دارت على أرضها، ... إلخ. عدد لا نهائيّ من المعايير، مما سينتج عنه نقاشاتٌ لا تنتهي. في حين أنّنا لو قمنا بتصنيف المدن في الجدول بحسب الترتيب الأبجدي، فستختفي كلّ بلبلةٍ على الفور. سيحلُّ ضربٌ من النّظام.

1 AD Abu-Dhabi								
3 Ak Auckland	4 Al Alexandria							
11 Be Beijing	12 Bg Bagdad							
19 Bt Beirut	20 Bu Brussels	21 Bv Bratislava	22 Ca Cairo	23 Cb Casablanca	24 Ch Chicago	25 Cp Copenhagen	26 CT Cape Town	27 Db Dublin
37 Hl Helsinki	38 HM Ho Chi Minh City	39 Hv Havana	40 Is Istanbul	41 Jb Johannesburg	42 Jk Jakarta	43 Jl Jerusalem	44 Ka Kolkata	45 Kb Kabul
55 Lm Lima	56 Lu Luanda		72 Ph Perth	73 PP Phnom Penh	74 Pr Paris	75 Qb Quebec	76 RJ Rio de Janeiro	77 Ro Rome
87 Sy Sydney	88 Sz Salzburg		104	105	106	107 TA Tel Aviv	108 Te Taipei	109 Tk Tokyo

57 LV Las Vegas	58 Lx Lisbon	59 Ma Madrid	60 MC Mexico City	61 Me Melbourne	62 Mi Miami
89	90	91	92	93	94

								2 **Ag** Algiers
			5 **Am** Amsterdam	6 **At** Athens	7 **Av** Aveiro	8 **BA** Buenos Aires	9 **Bc** Bucharest	10 **Bd** Budapest
			13 **Bk** Bangkok	14 **Bl** Berlin	15 **Bn** Barcelona	16 **Bo** Bombay	17 **Br** Bruges	18 **Bs** Boston
28 **De** Delhi	29 **Dk** Dubrovnik	30 **Dm** Damascus	31 **DS** Dar es Salaam	32 **Du** Dubai	33 **Ed** Edinburgh	34 **Fl** Florence	35 **Ge** Geneva	36 **HK** Hong Kong
46 **KL** Kuala Lumpur	47 **Km** Kathmandu	48 **Kt** Kyoto	49 **Kv** Kiev	50 **Kw** Kraków	51 **LA** Los Angeles	52 **Lb** Ljubljana	53 **Ld** London	54 **Lh** Lahore
78 **SF** San Francisco	79 **Sg** Singapore	80 **Sh** Shanghai	81 **Sl** Seattle	82 **Sm** Stockholm	83 **So** Sofia	84 **SP** São Paulo	85 **Sp** Saint Petersburg	86 **St** Santiago
110 **To** Toronto	111 **Vc** Vancouver	112 **Ve** Venice	113 **Vi** Vienna	114 **Wa** Warsaw	115 **Wh** Washington D.C.	116 **YG** Yangon	117 **Za** Zagreb	118 **Zh** Zurich

63 **Mk** Marrakech	64 **Mn** Munich	65 **Mo** Moscow	66 **Mt** Montreal	67 **Nb** Nairobi	68 **NO** New Orleans	69 **Ok** Osaka	70 **Os** Oslo	71 **Pg** Prague
95	96	97	98	99	100	101	102	103

.30

بديهي كلّ البداهة أنّ لهذا الـ ماتيو خسرَ وظيفتَه شكلاً دائرياً.
بدءاً من المدار وحتّى الشّخصية الأخيرة، التي هي في الواقع
الشّخصية ما قبل الأخيرة: ذاك الذي يأتي قبل ما لا نعرفه، قبل
ما لم يحدث بعد. إن الكتاب لا ينتهي بماتيو. إذ يتمّ استدعاء
شخصيّة أخرى، نِدرمِيير؛ لذا نحن لسنا أمام دائرة كاملة، بقدر م
نحن أمام شبه دائرة. فمن ماتيو لا نعود إلى آرونسون، وإنّما من
ماتيو نمرّ إلى نِدرمِيير، الشّخصيّة التي ستعيش أحداثاً لسنا نعرفُها
بعد. إنّها ليست دائرةً، ما دمنا لم نصل إلى حرف z، وهذا تسويغ
جيدٌ.

.31

في رواية غومبروفيتش، كوسموس، تدور الحكاية كلّها حول
مشكل التوليفات.

«(...) كنا نناقش مواضيع عديدة، وفي لحظةٍ ما يسألُ لوسيان
صهرَه عن رأيِه، تخيّل عشرة جنود يسيرون واحداً خلف آخر، في
صفٍّ واحدٍ، في رأيك، كم سيحتاجون من الوقت ليستنفدوا كلّ
التوليفات الممكنة في ترتيب مشيتهم، إذا ما وضعنا مثلاً الثالث

محلّ الأوّل وهكذا دواليك... مع افتراض أنّنا نقوم بتغيير واحدٍ في اليوم؟»

هوَ ذا أحد الأسئلة التي تزرع الشّك في المسؤول نفسه، والتي تستند إلى مشكل صغير: عدم التناسب بين كمٍّ العناصر، وبين كمٍّ التوليفات التي يمكن أن تجمعَ تلك العناصر.

«يفكّر ليون.

- ثلاثة أشهر، أقل أو أكثر بقليل.

يجيب لوسيان

- عشرة آلاف سنة. إنّ المسألة محسوبة.

يقول ليون: يا عزيزي... يا عزيزي... يا عزيزي...»

أجل يا عزيزي، إنّ هذه الأرقام الكبيرة تتركنا دوماً في حيرة.

إنّ ما يشكّلُ النّظامَ ينطوي على عدد لا محدود من التوليفات، ومن ثمَّ: على عدد لا محدود من النُظم. يكفي أن نضع موضع أسئلةِ التراتبَ -من يحتلّ المرتبة الأولى، ومن يليه- كي ينبثق إمكان توليفات جديدة بالآلاف.

تجربة: أن نغيّر الترتيب الأبجدي، أن نقبل أن لا يبدأ العالم بحرف A، وإنّما بالأحرى أن يبدأ باليوم الأوّل. لو أنّ الشّخصية غولدشتاين كانت هي أوّل شخصيّة تظهر، مبدّلةً بفظاظة حرف A، فما الذي يمكن أن يحصل؟

إذا ما كنّا نعتقدُ في التّرتيب الأبجدي، واتّبعنا التسلسل المشار إليه في هذا الكتاب، فإنّ البدء بغولدشتاين يعني أنّ آينهورن ودياموند وآرونسون وكلّ الشّخصيات الأخرى التي تبدأ أسماؤها بحرف يقع في بداية الأبجدية، لن تظهر في الكتاب، أو لن تظهر إلا بدايةَ دورةٍ ثانية، حيث بعدَ أن يصل الحكي إلى حرف Z، يمرّ إلى حرف A، ممّا سيجرّنا إلى عد حرف Z مفتتحَ حرف A، مثلما أنّ C لا يأخذ موضعه إلاّ بعد B.

.32

في روايته «جروف الرّمال»، يثير يونغر «الإحساسَ المظفّر، إحساس الأمان الذي نحسّه حتّى في كنف الأخطار». وسط بلبلة العالم الخطيرة، يلتمس الجميع الأمان، نقطة ارتكازٍ يستند إليها.

وسط الفوضى والدّمار، يسعى المتحاربون إلى تحديد اتّجاههم وسط الغابة (رمز اللا ترتيب والبلبلة) بفضل معارفهم

بالأزهار: «إنّا نحاولُ»، يقولُ أحدهم، «أن نستند ثابتين، وسط الفوضى، إلى عمل لينيوس الرّائع، الذي يرتفع كقلعةٍ من القلاع أو مرقبٍ من المراقب التي بفضلها يحيط الذّهنُ بنظرةٍ واحدةٍ بكلّ المَناطق النّباتية البريّة».

يتمكّنون من التموقع وسط الكاووس، وسط الرّعب الذي يبسط يديه على الأرجاء، لأنّهم يتشبّثون (يثقون) بمعرفةٍ «وسط تلك الفوضى، كنّا بالتّأكيد لنُضيعَ طريقَنا (...) لولا وجود نباتاتِ النّدية»؛ علما أنّ «هذه النّبتة الصّغيرة كانت تنتشر على امتداد الحزام الرّطب الذي يحوط الغابة»؛ لم يكونوا يحيدون ببصرهم عن النّبتة، لكي يتمكّنوا من بلوغ وجهتهم.

نقطة الارتكاز تلك؟ برج المراقبة ذاك؟ في ماتيو خسر وظيفتَه، كان هو: ماتيو، الشّخصية. الجميع يلتقي عنده، الجميع يتقدّم باتّجاهه؛ حين يتيه حرفٌ من الحروف، يرفَعُ رأسَه، فيرى ميم ماتيو، فيدرك أنّه على الطّريق الصّحيحة. بمَ تتشبّثُ الشّخصيات؟ بماتيو دائماً، حتّى آرونسون البعيد جداً (في بداية بدايات الكتاب).

.33

الرّوابط بين مختلف الأحـداث في ماتيو خسر وظيفَته. الواقعُ أنّ الرّابط لا يتمّ بين أ و ب، الرّابط يتمّ في عالم الأحداث الملموس؛ الأحداث مترابطةٌ، الشخصيات تتقاطع، وما الأبجدية إلا تنظيمٌ خارجيّ. وكأنّما ثمّة سلسلة من الأحداث، وبدلاً من أن نعدَّ (1، 2، 3...) نعطيها أسماءً. إنّ أسماء الشّخصيات هي أيضاً أسماءٌ لأحداثٍ. أن نخلع اسمَ إنسانٍ على شيء يحدث في العالم هو طريقةٌ من الطّرق لأنسنة الوحشيّ والشّائه الذي لا نفهمه.

بيد أنّ الرّابط يُقام فعلياً مع العالم، وليس مع الحروف التي تصفه أو تنظّمه.

على أيّ حال، هكذا يعمل السّارد: النّظرةُ تتعلّق بتفصيل من تفاصيل المروية الموجزة، وهذا التّفصيل هو الذي يقيم الرّابط مع المروية الموجزة التالية. ولو أنّ السّارد يركّزُ انتباهه ليس على هذا التّفصيل، وإنّما على تفصيل آخر، فإنّ شخصية آرونسون يمكن أن ترتبط، ليس بآشلي، وإنّما بشخصيّة أخرى، ضمن أيّ حدثٍ مغاير. ثمّة هنا، مثل أيّ رواية أو عمل متخيّل، نظاماً من الرّوابط. يبدو الرّابط بديهياً، لكن أيّ رابط آخر قد يبدو على القدر نفسه من البداهة. يتعلّق الأمر، كما في أرجاء «جروفِ الرّخام» ليونغر، بموقَعة أنفُسنا وسط الفظاعة.

إنّ السّاردَ، أيّ سارد كان، يفعل ذلك؛ وإلا فإنّه يختار الفظاعة، بعبارة أخرى الشّائه. وهو اختيارٌ ممكنٌ، بالطّبع، لا بل وحتّى أنّه اختيارٌ رائع.

.34

ماتيو خسر وظيفَته يمكن أن تبدأ من أيّ مكانٍ. المتعذّرُ، هو أن تتبع حلقةَ غولدشتاين، المرويةُ القصيرة التي يظهر فيها آينهورن، لأنّ كلّ شخصيّةٍ لا توجد إلا لأنّ سابقتها توجَد، أي أنّها، بمعنى ما، تستدعيها، تعيّنُها من وسط الحشد لتخرجها منه. إذا ما كان الطّفلُ الذي يبدأ اسمه بحرف G يرفع يدَه مجيباً النّداءَ على الأسماء، فإنّما مردُّ ذلك إلى أنّ الأطفال الذين تبدأ أسماؤهم بحروف تسبق حرف G قد نوديَ بأسمائهم من قبل. لو أنّ العالم كان يتمتّع بالنّظام، فلا أحد ممّن تبدأ أسمائهم بحرف F سينادى عليه بعد الاعلان عن حضور غولدشتاين. قد يفصح هذا الاعتبار عن نفسه في ذهنٍ مرحٍ، كما قد يتّخذ بُعداً حاسماً ومأساوياً، مثل اختيار اليهود المتوجّهين من أحد الغيتوهات صوبَ معسكر إعدام. وهو اختيار قد اتّبع أحياناً ترتيباً أبجدياً. لو أنّ النّداء بدأَ بحرفَ G، لنجا الشّخص الذي يبدأ اسمه بحرف F – أقلّه مؤقّتاً.

إنّ التّراتب بالأبجديّة ليس إذن مجرّد لهو. هو قد يمثّل الخلاصَ (لقد اجتازوا اسميَ)، أو يمثّل إدانةً (إنّه أنا!)، أو حتّى زمانَ التّهديدِ المعلّقَ (لم يصلوا بعد إلى حرفي).

«تبدأُ المحاكمة الرومانية (...) بما يسمّى nominis delatio، أي أن يقيِّدَ المُدّعي اسمَ المُدّعى عليه في لائحة المتّهمين».

- جورجيو أغامبن



غونزالو تافاريس

ماتيو
خسر وظيفته

هل يستطيع الحدث الاعتيادي أن يكون موضوعاً للدهشة؟ ومن ثَمَّ؛ فهل نستطيع كتابة رواية ممّا يبدو عاديّاً ومألوفاً ويحدث كلّ يوم، لكل الناس تقريباً؟ يجيبنا غونزالو تافاريس في روايته "ماتيو خسر وظيفته"، ليس عبر حدث واحد، وإنّما سلسلةٌ من الأحداث التي لفرطِ تباعدها تتّصل، ولشدّة اعتياديّتها تبلغ درجة عالية من الإدهاش.

يطوّفُ الروائي البرتغالي بأحداث نصّه في مدار متماسك ومتّصل من خلال شخصيّات عدة، تقود القارئ إلى القَصد المنشود "ماتيو" الذي تقدّم ليجريَ مقابلة وظيفية شاهدَ إعلانَها في إحدى الصحف. تكمن المفاجأة في أنّ السيّدة -صاحبة الوظيفة- لها منظرٌ غيرُ مألوف؛ إذ كانت بلا ذراعَين، وعملُه يقتضي أن يقوم مقامها.

- الناشر


ISBN
9 789921 712131



@DarAlkhan_kw
Info@daralkhan.com